المجلس الأول

في فضل الصلاة على النبي ﷺ ، وفضل بسم الله الرحمن الرحيم

اعلموا يا إخواني : أن هذه بضاعتي ، وها أنا أعرضها عليكم فمن رأى خيراً فليحمد الله تعالى وليكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ ومن رأى غير ذلك فليقل : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فإنها جبر لنقص المقصرين ، ولقلوب المنكسرين ، وقد ورد في صحيح السنة ، أنها كنز من كنوز الجنة .

واعلموا يا إخواني : أنه ما سلم من النقص والخلل ، والخطايا والزلل : إلا النبي ﷺ المفضل ، والرسول المبجل ، صاحب الوصف الأكمل ، والقدّ الأعدل ، وما صح الفضل والكمال ، إلا لمن جمعت فيه أشرف الخصال ، الذي أوتي جوامع الكلم وخص بالفضل والعلم والعقل والأنفال .

وهو الذي قد حاز كل الكمال وخص بالفضل وحسن المقال وهو الذي قد جاءنا رحمة
مفرقاً بين الهدى والضلال محمد المبعوث من هاشم أفضل من حاز جميع الخصال

صلى عليه الله طول المدى ما عطر الكون نسيم الشمال

[**عباد الله**] : ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً » .

[**إخواني**] : أحضروا قلوبكم ، وتفكروا وميزوا بعقولكم وانظروا من هو الذي يصلي عليكم ويكافئكم ويجازيكم بالصلاة الواحدة عشرة ، فأي ربح أعظم من هذا الربح ، وأي تجارة أربح من هذه التجارة ؛ فيا معشر التجار والراغبين في كسب الدرهم والدينار ، لو قيل لأحدكم البلد الفلاني فيه بضاعة تكسب الدرهم درهمين ، والدينار دينارين لسارعتم إليها وتزاحمتم عليها ، وبذلتم فيها المجهود بالمزايدة لما فيها من الربح والفائدة ؛ فكيف لكم بهذه البضاعة الرابحة ، والتجارة الناجحة التي أخبركم بها الصادق الأمين عن رب العالمين أنكم كلما صليتم على نبيكم صلاة واحدة صلى الله عليكم بها عشرة ، فانظروا هذا الربح واجنوا هذه الثمرة ، وينشد في المعنى :

من عامل الله لم تخسر تجارته وكل قلب خراب بالتقى عمره
وما تصلي على المختار واحدة إلا عليك يصلي ربه عشره

فاغنم صلاتك يا هذا عليه تفز بالربح عند إلّه فاز من شكره

فيا معشر الفقراء الصادقين الكبراء ، منكم استفدنا ، وعنكم روينا ، وبكم رحمنا ، والله ما عرّضت بذكركم لكوني آمركم وأنهاكم ، وإنما تمثلت بقول القائل : أحياء القلوب ارحموا أموات القلوب ، ويكفيكم شرفاً وفخراً أن الله تعالى قد مدحكم في كتابه وشرفكم بخطابه فقال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ويهنيكم أن ذكركم رسول الله ﷺ فقال : « يا معشر الفقراء اصبروا حتى تلقوني على الحوض فإنكم أول زمرة ترد عليّ » فسبحان من أعطاكم وكمل لكم السرور وحباكم وبلغكم القصد والسول بقول هذا السيد الرسول ﷺ : « فقراء أمتي تدخل الجنة قبل أغنيائها بنصف يوم ، وهو خمسمائة عام يأكلون ويشربون ويتنعمون والناس في كرب الحساب » فسبحان من رفع لهم قدراً ، ونشر لهم ذكراً ، وأعطاهم صبراً ، وضاعف لهم ثواباً وأجراً ، وما أحسن ما قال فيهم غلامهم الحريفيش :

هم الفقراء أهل الله حقا وقد حازوا بضيق الفقر فخرا هم الفقراء قد صبروا وأوذوا
فعوضهم بذاكَ الصبر أجرا هم الفقراء والسادات حقاً ومنهم تكتسى الأكوان عطرا
هم الفقراء عنهم فارو ذكرا وحدث عنهمو سراً وجهرا فكم صبروا على ضيم الليالى
فعوضهم بذاك الكسر جبرا وقد زاروا الحبيب وشاهدوه وقد سجدوا له حمداً وشكرا

فيا أيها الفقراء : بالذي أنعم عليكم وزاد في الإحسان إليكم إنا لنشتهي أن تجبرونا وتوافقونا وترفعوا أصواتكم معنا بالصلاة على النبي ﷺ فإن من صلى عليه صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً . فهذه تسعة زائدة فأيّ ربح أعظم من هذا ، وأيّ فائدة ؟ . قال ﷺ : « من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً ، ومن صلى عليّ عشراً صلى الله عليه مائة ، ومن صلى عليّ مائة صلى الله عليه ألفاً ، ومن صلى عليّ ألفاً زاحمت كتفه كتفي على باب الجنة » .

[إخواني] فماذا عسى أن يصف الواصف أو يقول ، وقد قال المصطفى الرسول الذي بين الكتاب والسنة : « من صلى عليّ ألفاً زاحمت كتفه كتفي على باب الجنة » :

صلوا على الهادي البشير محمد تحظوا من الرحمن بالغفران
فالله قد أثنى عليه مصرحاً في محكم الآيات والقرآن

وقيل : إنه من صلى عليه وهو قائم غفر له قبل أن يجلس ، ومن صلى عليه وهو قاعد غفر له قبل أن يقوم ، ومن صلى عليه وهو نائم غفر له قبل أن يستيقظ من منامه ، وذلك أن العبد إذا عاش ما شاء الله وكان على غير التوحيد ، فإذا أراد الله به خيراً ألهمه كلمة الشهادة فيأتي

بعض المسلمين إليه فيلقنه الشهادة ويكررها عليه ثم يقول بعد ذلك : صلّ على النبي ﷺ ، فإذا فعل ذلك وحسن إسلامه وصلى على النبي ﷺ فإن كان قائماً غفر له قبل أن يقعد ، وإن كان قاعداً غفر له قبل أن يقوم :

صلوا على خير الأنام محمد إن الصلاة عليه نور يعقد من كان صلى قاعداً يغفر له
قبل القيام وللمتاب يجدد وكذاك إن صلى عليه قائما يغفر له قبل القعود ويرشد

وقِيل : إنه من صلى على النبي ﷺ في نومه غفر له قبل أن يستيقظ كما جرى لأم أبي بكر الصديق رضي الله عنهما . أتى النبي ﷺ ومعه أمه وكان في أول الليل فتحدث النبي ﷺ مع أبي بكر وطاب لهم الحديث فدخل الليل ونامت أم أبي بكر ، فلما أراد الانصراف قال النبي ﷺ لأبي بكر : كيف حالك ؟ فقال : بخير يا رسول الله غير أن هذه أمي وليس لي عنها غنى فادع الله لها يا سيد الأنام أن يلهمها الإسلام ، فبسط النبي ﷺ يديه وهمهم بشفتيه ودعا لها ، فقال بعض من كان حاضراً : والله لقد سمعناها تنطق بالشهادة وكلمة الإخلاص وهي نائمة ، فلما استيقظت رفعت صوتها وقالت : أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله . فهذه يعني أم أبي بكر غفر لها قبل أن تستيقظ تصديقاً لحديث رسول الله ﷺ ، ومثل هذا جرى كثيراً لمن كان على غير الإسلام فيرى النبي ﷺ في المنام فيسلم على يديه ويصلي عليه فينتبه وقد غفر له :

هنيئاً لعين قد رأت نور أحمد وفازت جهاراً منه بالحسن والرؤيا
وقد أسعد الرحمن عبداً دعا له فأضحى سعيداً في الممات وفي المحيا
وبدل دين الشرك بالنور والهدى وبلغ ما يهوى من الدين والدنيا
وفاز برؤيا المصطفى سيد الورى نبي حباه الله بالرتبة العليا
عليه صلاة الله ما طاف طائف بمكة بيت الله قصداً أتى سعيا
صلاة شذاها عطر الكون جهرة فمن قاسها بالمسك يوماً فما استحيا

[وقال بعض الصوفية] : كان لي جار مسرف على نفسه لا يعرف من سكره يومه من أمسه ، وكنت أعظه فلا يقبل ، وآمره بالتوبة فلا يفعل ؛ فلما مات رأيته في المنام في أرفع مقام ، وعليه من حلل الجنّة لباس الإعزاز والإكرام فقلت له : بمَ نلت هذه المنزلة والمقام ؟ فقال : حضرت يوماً مجلس الذكر فسمعت المحدث يقول : « من صلى على النبي ﷺ ورفع صوته وجبت له الجنة » ثم رفع المحدث صوته بالصلاة على النبي ﷺ ورفعت أنا صوتي معه ورفع القوم

أصواتهم فغفر لنا جميعاً في ذلك اليوم فكان نصيبي من المغفرة أن جاد عليّ مولاي بهذه النعمة :

يـا فـوز مـن صـلى عليـه فإنـه يحـوي الأمـاني بـالنعيم السـرمدي
إن شـئت مـن بعـد الضـلالة تهتـدي صـلي علـى الهـادي الـنبيّ محمـد
يـا قومنـا صـلوا عليـه لتظفـروا بالبشـر والعـيش الهـنيّ الأرغـد
ويخصـكم ربّ الأنـام بفضـله والفـوز بالجنـات يـوم الموعـد
صـلى عليـه الله جـلّ جلالـه مـا لاح في الآفـاق نجـم الفرقـد

ومن فضائل الصلاة على النبيّ ﷺ أن امرأة كان لها ولد مسرف على نفسه ، وكانت تـأمره بالخير وتنهاه عن الفحشاء والمنكر والقضاء غالب عليه فمات وهـو مصرّ علـى مـا كـان عليـه فحزنت عليه أمه حزناً شديداً حيث مات على غير توبـة فتمنـت أن تـراه في المنـام فرأتـه وهـو يعذب فازدادت عليه حزناً . فلما كان بعد مدة رأته وهـو علـى هيئـة حسـنة في فـرح وسـرور فسألته عن حاله وقالت : يا ولدي إني رأيتك تعذب فبم نلت هذه المنزلة ؟ فقال : يا أماه اجتاز رجل مسرف على نفسه بالتربة التي أنا فيها فنظر إلى القبور وتفكر في البعـث والنشـور واعتـبر بالموتى فبكى على زلته ، وندم على خطيئته ، وتاب إلى الله عزّ وجل ، وعقد التوبة معه أن لا يعود ففرحت بتوبته ملائكة السماء ، فيا لله ما أحسن الصلح مع الحبيب ثم إنه لما تـاب وعلـم الله صدق توبته وتاب عليه قرأ شيئاً من القرآن وصلى على النبي ﷺ عشرين مرة وأهدى ثوابها لأهل التربة التي أنا فيها فقسم ثوابه علينا فنالني من ذلك خير فغفر الله لي بـه وحصـل لي مـن الخير ما ترين .

فاعلمي يا أماه أن الصلاة على النبي ﷺ نور في القلوب ، وتكفير الذنوب ، ورحمة للأحياء والأموات :

ولأحمـد فضـل لا يحـدّ ولا يحصـى ومن شـأنه بـين الـورى أبـداً يقصـى
هـو القرشـيّ الهـاشمي الـذي سـرى من المسجد الأسنى إلى المسجد الأقصى
نـبيّ دنـا مـن قـاب قوسـين مـذ دنـا فسبحان مـن وصـى إليـه بمـا وصـى
عليـه صـلاة لا انتـهاء لوصـفها مـن الله رب لا تحـدّ ولا تحصـى

فسبحان من شرف سيد المرسلين على جميع المخلوقين ، وجعله بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، وآتاه فضلاً عظيماً وخلقاً كريماً ، وداوى به أمراض الجهالـة والضـلالة قلوبـاً وجسـوماً ، وبلغه المراد ، وهدى به العباد صراطاً مستقيماً ، وقـال في حقـه تعظيمـاً لنـا وتبجـيلاً لـه وتعظيماً : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾

[الأحزاب : ٥٦] .

الله زاد محمـــــداً تكريمـــــا وحباه فضلاًمن لدنه عظيما واختاره في المرسلين كريما
ذا رأفـــــة بـــــالمؤمنين رحيمـــــاً صـــلوا عليـــه وســـلموا تســـليما

يا أمة الهادي خصصتم بالوفا بين الورى والصدق أيضاً والصفا صلوا على الهادي النبي المصطفى
فـــالله قـــد صـــلى عليـــه قـــديماً صـــلوا عليـــه وســـلموا تســـليما

فمتى أرى الحادي يبشر باللقا ويضمنا باب المحصب والنقا وأرى ضريح المصطفى قد أشرقا
مـــولى رحيمـــاً لا يـــزال حليمـــاً صـــلوا عليـــه وســـلموا تســـليما

ثم الرضا عـن آلـه الكرمـاء وكذاك عـن أصـحابه الخلفـاء فهمو همو ديني وعقد ولائي
قومـــاً تـــراهم في المعـــاد نجومـــاً صـــلوا عليـــه وســـلموا تســـليما

ثم إن أول ما فاه به اللسان ، واستفتح به الإنسان اسم الملك المنان الذي أخبرنا به سيد الأكوان بقوله : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم » أي مقطوع البركة في كل آن ، إذ اسم الله تعالى يعبق به كل مكان ، وهو نور البهجة في السرور والعيان ، وحرز مانع وأمان . وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع ، وقيل أجذم » ومعناه ناقص قليل البركة . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خير الناس وخير من يمشي على وجه الأرض المعلمون ، فإنهم كلما خلق الدين جدّدوه أعطوهم ولا تستأجروهم فإنه إذا قال المعلم للصبي قل : بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبي وبراءة لأبويه من النار وبراءة للمعلم » . وقال جابر بن عبد الله : « لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغيم من المشرق إلى المغرب ، وماج البحر وأصغت البهائم بأذنيها ورجمت الشياطين وحلف الله بعزته لا يسمى اسمه على شيء إلا بارك عليه ، ومن قرأ بسم الله الرحمن الرحيم دخل الجنة » :

اســـم إذا قـــرع القلـــوب تمايلـــت طربـــاً وأنمـــت بـــالتقى أســـرارها
وإذا حـــدا الحـــادي بطيـــب حديثـــه طابـــت وفاحـــت بالرضـــا أزهارهـــا
ترتـــاح إن ذكـــر اســـمـــه ويهزهـــا طربـــاً إذا حفـــت بـــه أوكارهـــا
وإذا ابتـــدأت بـــذكره في حضـــرة حضـــر الســـرور بهـــا وطـــاب مزارهـــا

وروى مسلم في صحيحه والنسائي والترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : « إذا دخل الرجل بيته فذكر بسم الله عند دخوله ، قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء ،

وإذا دخل ولم يذكر بسم الله عند دخوله ، قال الشيطان أدركتم المبيت ، وإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال الشيطان : أدركتم المبيت والعشاء » فاسم الله تعالى يطرد الشيطان ، ويدّر البركة في المكان ، وبسم الله الرحمن الرحيم لها فضائل كثيرة وبركات غزيرة ؛ فلو أن أهل السموات والأرض يكتبون فضائل بسم الله الرحمن الرحيم لم يدركوا عشر عشر فضلها :

كرر عليّ الذكر من أسمائه ... واجل القلوب بنوره وضيائه

اسم به الكون استفاد ضياءه ... في أرضه وفضائه وسمائه ... لا يحصر الوصاف بعض صفاته

كلا ولا يدرون كنه سنائه ... حارت عقول القوم عند صفائه ... ضاءت قلوب الخلق من لألائه

يا ربّ بلسمك أرتجي منك الرضا ... والعفو عن عبد رزي بخطائه ... أعد اسمه للعارفين تلاوة

تلقى به المعروف من آلائه ... يا رب أسألك الإعانة في غد ... بعظيم اسمك فهو عين دوائه

يا رب عبدك قد براه سقامه ... قد حارت الأفكار في أدوائه

يا رب باسمك أرتجي منك الشفا ... أنت المرجى دائماً لشفائه

يا رب بالهادي البشير المصطفى ... الصادق المصدوق في أنبائه

ارحم غريقاً في بحار ذنوبه ... وأجره حقاً من قيود عنائه

يا رب صلّ على النبيّ محمد ... ما لاح برق في دجى ظلمائه

المجلس الثاني

يشتمل على قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ ﴾ [الرَّحْمن : ١ ـ ٢]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

الحمد لله العطوف الرؤوف المنان . الكريم القديم الإحسان . العلي الغني القوي السلطان . الأول ولا أزمان . الآخر ولا أكوان . الباقي ولا إنس ولا جان . الذي كتب بأقلام الأحكام في ألواح أرواح الأنام . آيات التوحيد والإيمان . أوقد مصابيح التوفيق ، لقلوب أهل التصديق ، فرأوا جمالاً لا يمثل للعيان ، ولا يخيل للجنان ، أخرج ذرية آدم بأرض نعمان ، وقسمهم إلى ذي حظ وحرمان ، فكم حقير رفع ، وكم عزيز هان ؟ صفى أسرار قوم ،

وكدر أسرار آخرين وشان . فأهل الكدر يتعادون وأهل الصفاء يتهادون ، ويتداعون كالإخوان ، ويتلاقون بالقلوب وإن تباعدت الأوطان ، ويتعارفون بالغيوب فتحنّ إليهم القلوب ، وتتعاطف وإن لم ينطق اللسان ، ويتلاقون بالإخلاص للضمائر ، وإن نأى بهم المكان . ويحذر بعضهم بعضاً مواطن الإثم والخسران . ويتواسون بالبر والإيثار والفضل والإحسان . كما أمرهم بذلك خالق الخلق ومكون الأكوان . فقال تعالى في محكم القرآن : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾ [المائدة : ٢] فسبحان من أظهر أسرار البيان . في تعليم تعظيم الرحمن علم القرآن . كتب مسطور الإلهام ، بقلم الإفهام ، في تعليم خلق الإنسان : علمه البيان . دبر الأدوار بمقدار الأقدار ، في تكوير النهار على الليل والليل على النهار ، والشمس والقمر بحسبان . يسبحه الحجر والمدر ، والشمس والقمر والنجم والشجر يسجدان ، أظهر آثار صنعه لأبصار أهل معرفته ، فكبا جواد العقل في بيداء قدرته ، التي أبدعها لما علم أن السماء رفعها ووضع الميزان ، فالخائفون واقفون على أقدام الألطاف ، متصفون بأحسن الأوصاف ، يناديهم منادي العدل والإنصاف : ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] والعارفون محافظون على ملازمة الخدمة تحقيق تصديق وعد ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] فهم في محاريب عبادتهم يتمايلون وقت السحر ميل الشجر بالأغصان ، هز الشوق أفنان قلوبهم فتناثرت الأفنان ، فاللسان يضرع والقلب يخشع ، والعين تدمع ، والوقت بستان . خلوتهم بالحبيب تشغلهم عن نعم ونعمان ، سرورهم أساورهم والخشوع تيجان ، خضوعهم حلاهم بدرّ ومرجان ، باعوا الحرص بالقناعة فما ملك أنوشروان ، طالت عليهم أيام الحياة ، والمحب إلى الحبيب ظمآن ، فإذا وردوا القيامة تلقاهم بشير لولاه ما طابت الجنان ﴿ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ ﴾ [التوبة : ٢١] فتلمح بعين البصيرة أيها الإنسان ، واجْلُ مرآة السريرة تر البرهان ، أين أنت منهم ما نائم كيقظان ، كم بينك وبينهم ، أين الشجاع من الجبان ، ما للمواعظ فيك موضع والقلب بالهوى ملآن ، قف على باب الحبيب وقوف ولهان ، ونكس رأس الحياة تنكيس ندمان ، واركب سفينة الصدق فهذا الموت طوفان ، أفق من خمار الهوى ، فإلى متى أنت بخمار الهوى سكران . أتبيع ما يبقى بما يفنى ! هذا والله عين الخسران ، تالله لو أشرفت على وادي الرجاء لرأيت الأبطال والفرسان ، ولو مررت على ركائب الأحباب لسمعت حداة الأظعان ، ولو وقفت على طريق الأحباب لشاهدت الركبان :

يا غافلاً يتمادى في اللهو كم هذا الزلل ... غدا عليك ينادي يا ناكثاً خوان
لا تغترر بالدنيا فليس هي دار البقا ... الدار دار الآخرة فجدّ في البنيان
أبناء عشر تواصوا بالخير فيما بينكم ... فالخير لا شك عادة من الصغر قد بان
أبناء عشرين جدوا واستغنموا شبابكم ... ما دام غصن الشبيبة لكم رطب ريان
يا بْنَ الثلاثين بادر إلى الممات فربما ... تأتي المنايا بغتة وتحرم الإمكان
وأنت ماذا عذرك ذا الوقت يابْنَ الأربعين ... وقد بلغت أشدك فاسبق إلى الإحسان
أبناء خمسين هذا وقت الرجوع عن الزلل ... فليس بعد الزيادة شيء سوى النقصان
أبناء ستين كونوا من المنون على حذر ... فما أحد قد يعطى من المنون أمان
أبناء سبعين وافى جيش المشيب وما بقي ... للزرع غير حصاده وينشر الديوان
يابْنَ الثمانين قل لي في الدهر ماذا تنتظر ... قد حان وقت رحيلك وشالت الركبان
أبناء تسعين فوزوا فقد كتب توقيعكم ... من ربكم بالإنابة والعفو والغفران
وأنت يا بْنَ المائة قد حان وقتك ما بقي ... غير التوجه إلى الله في السر والإعلان
قد حان وقت رحيلك فقم تجهز للسفر ... وحصل الزاد كي لا تجي غداً ندمان

قال أبو إسحق إبراهيم الخواص رحمة الله تعالى عليه : كنت في طريق مكة أسير على الوحدة فتهت عن الطريق فكنت أمشي يومين وليلتين حتى أدركني المساء فاغتممت بسبب الوضوء وفقد الماء وكانت ليلة مقمرة فسمعت صوتاً ضعيفاً يقول : إليّ يا أبا إسحق فدنوت منه ، فإذا هو شاب حسن الشباب نظيف الأثواب ، وعند رأسه ريحان مختلف الألوان ، فتعجبت من ذلك في تلك البرية كيف عنده الرياحين وهو مطروح على الرمل وليس له حركة ، فقال لي : يا أبا إسحق قد دنت وفاتي وإني سألت الله تعالى أن يحضر وفاتي وليّ من أوليائه فنوديت أن سيحضر وفاتك أبو إسحق الخواص وإني لأرجو أن تكون أنت وأنا منتظرك ، فقلت : يا أخي ما الذي حبسك ؟ فقال : كنت بين أهلي في عز ورقة عيش فخطر لي السفر واشتهيت الغربة فخرجت من مدينة شمشاط أريد الحج فوقعت في هذه البقعة منذ شهر ، وقد حضرت الوفاة ، فقلت له : ألك والدان ؟ قال : نعم وأخت صالحة ، فقلت : هل اشتقت إليهم قط أو خطروا ببالك ؟ قال : لا إلا اليوم فإني أحببت أن أشم منهم رائحة وأجدد بهم عهداً فاجتمعت عندي وحوش كثيرة وأتوني بهذه الرياحين وبكوا معي ، فبقيت متحيراً في أمره متفكراً في حاله ، ووقع الشاب في قلبي وانجذب إليه سري . فبينما أنا كذلك إذ أقبلت حية عظيمة ، ومعها باقة نرجس لم أر أحسن منها ولا أزكى رائحة فوضعتها عند رأسه ، وقالت بلسان فصيح : يا إبراهيم اعدل عن ولي الله ، فإن الحق سبحانه وتعالى غيور ، قال : فلحقني حال مما رأيت

وصحت صيحة وغشي عليّ فما أفقت إلا والشاب قد فارق الدنيا ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، هذه محنة عظيمة كيف أصنع في غسله وتجهيزه فأرسل الله عليّ النعاس حتى تملكني فنمت فما أفقت إلا طلوع الشمس ، وأنا على الحالة التي أعرفها ولم أجد للشاب أثراً فبقيت محزوناً عليه ، فلما قضيت الحج أتيت شمشاط فاستقبلني نساء عليهن مرقعات وفي أوائلهن امرأة عليها مرقعة وثوب شعر وبيدها ركوة ، وهي لا تفتر عن ذكر الله تعالى فتأملتها فما رأيت واحدة في النساء أشبه للشاب منها فنادتني : يا أبا إسحق أنا في انتظارك منذ أيام حدثني عن أخي قرة عيني وثمرة فؤادي ، ثم بكت وارتفع بكاؤها وبكيت لبكائها فوصفت لها الشاب وما شاهدت منه ومن الرياحين ، فلما بلغت إلى قوله : أحببت أن أشم منهم رائحة ، قالت : هاه هاه بلغ الشم بلغ الشم بلغ الشم ثم سقطت إلى الأرض ميتة فاحتوشها أترابها وأصحابها ، وقالوا : يا أبا إسحق جزاك الله خيراً ، فلما دفنت أقمت على قبرها إلى الليل فرأيتها في المنام وهي في روضة خضراء والشاب عندها وهما يقرآن : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات : ٦١] .

قوم إذا عبث الزمان بأهله ... كان المفر من الزمان إليهم
وإذا أتيتهم لدفع ملمة ... جادوا عليك بما يكون لديهم

[**وحكى**] عن الشبلي رحمة الله تعالى عليه أنه رأى في بعض الأيام مجنوناً والصبيان يرمونه بالحجارة ، وقد أدموا وجهه وشجوا رأسه ، فجعل الشبلي يزجرهم عنه قالوا : دعنا نقتله فإنه كافر يزعم أنه يرى ربه ويخاطبه . فقال : كفوا عنه ، ثم تقدم إليه الشبلي فوجده يتحدث ووجهه يضحك ويقول : أجميل منك تسلط عليّ هؤلاء الصبيان ! ثم قال : ما الذي يقولون عني ؟ قلت : يقولون تزعم أنك ترى ربك ويخاطبك فصرخ صرخة عظيمة ، ثم قال : يا شبلي وحق من تيمني بحبه وهيمني بقربه لو احتجب عني طرفة عين لتقطعت من ألم البين ، قال الشبلي : فعلمت أنه من الخواص أرباب الإخلاص ، فقلت له : حبيبي ما حقيقة المحبة ؟ فقال : يا شبلي لو قطرت قطرة من المحبة في البحار أو وضعت ذرة منها على الجبال لصارت هباء منثوراً ، فكيف بقلب كساه الغرام قلقاً وزفيراً ، وزاده الهيام حرقاً وتحسيراً :

كشف الحبيب لمن دعاه ستورا ... وسقاه كأساً فاغتدا مخمورا
واعتاده حر اللهيب ولم يرد ... إلا الحبيب فنال منه حبورا
يا فوز من كان الحبيب نديمه ... وغدا إليه في الجميع مشيرا
وإذا رأيت محبه في سكره ... خلع العذار رأيته معذورا
من ذا يطيق الصبر عن محبوبه ... حاشى المحب يكون عنه صبورا

[إخواني] المحبة حبة بذرت في أرض القلوب ، وسقيت بماء التوبة من الذنوب ، فأنبتت سنابل المحبة في كل سنبلة مائة حبة ، فلو وضعت حبة منها لأطيار القلوب لهامت في هوى المحبوب فللّه درّ رجال ما تركوا في قلوبهم لغير محبوبهم مجال :

عج بالمعالم والربوع ... واسأل بهن عن الرجوع ... أين الذين عهدتهم
يا دار في العز المنيع ... والنهي والأمر المطاع ... بذروة القصر الرفيع
إن لم تجبك ديارهم ... يا صاح بالأمر الفظيع ... فلسان حالهم يقول
ما تنظرن إلى الجموع ... قد أصبحت مهجورة ... من بعد منظرها البديع

هيهات أن ينجو غداً ... يوم الحساب سوى المطيع

فللّه درّهم من أقوام مالوا إلى الله وتركوا المال وأعرضوا عن الدنيا شغلاً بالمآل ، واعتبروا بمن مضى وتغير الأحوال ، وساعدهم على اليقظة أكل الحلال .

[**قال ذو النون المصري رحمة الله عليه**] : مررت يوماً ببعض الأسواق فرأيت جنازة محمولة على أربعة أنفس ، وليس معها أحد ، فقلت : والله لأكونن خامسهم لأنال الأجر والثواب ، فلما أتوا الجبانة قلت : يا قوم أين وليّ هذا الميت فيصلي عليه ، فقالوا : يا شيخ كلنا في الأمر سواء ليس منا أحد يعرفه فتقدمت وصليت عليه وأنزلناه في لحده وحثونا عليه التراب ، فلما هموا بالانصراف قلت لهم : ما شأن هذا الميت ؟ فقالوا : لا نعرف خبره غير أن امرأة اكترتنا لنحمله إلى هذا المكان ، وهي لاحقة بنا الآن . فبينما نحن في الحديث إذ جاءت امرأة عليها سيما الخير والصلاح وهي باكية العين حزينة القلب ، فلما وقفت على القبر كشفت وجهها ، ونشرت شعرها ، ورفعت يدها إلى السماء وهي تتضرع وتقول كلاماً وتدعو ساعة ، ثم سقطت إلى الأرض مغشياً عليها ، ثم أفاقت بعد ذلك وهي تضحك ، فقلت لها : أخبريني عن خبرك وخبر هذا الميت وكيف الضحك بعد ذلك البكاء الشديد ؟ فقالت : من أنت ؟ فقلت : ذو النون ، فقالت : والله لولاك من أعيان الصالحين لما أخبرتك ! هذا ولدي وقرّة عيني كان تائهاً بشبابه ، لابساً ثياب إعجابه ، لم يدع سيئة إلا ارتكبها ، ولا معصية إلا سعى إليها وطلبها ، وقد بارز مولاه العلام بالمعاصي والآثام ، فحصل له يوماً من الأيام ألم من الآلام منذ ثلاثة أيام ، فلما عاين الموت قال : يا أماه : سألتك بالله إلا ما قبلت وصيتي : إذا أنا مت فلا تعلمي بموتي أحداً من أصحابي وإخواني ولا من أهلي وجيراني فإنهم لا يترحمون عليّ لسوء فعلي وكثرة ذنوبي وجهلي . ثم بكى وقال :

لي ذنوب شغلتني ... عن صيامي وصلاتي ... تركت جسمي عليلاً ... مات من قبل وفاتي
ليتني تبت لربي ... من جميع السيئات ... أنا عبد يا إلهي ... هائم في الفلوات
بحت جهراً بعيوبي ... وذنوبي قاتلاتي ... قد توالت سيئاتي ... وتلاشت حسناتي

ثم بكى وقال : يا أماه آه على ما فرطت في جنب الله ، آه على قلبي ما أقساه ، بالله عليك يا أماه إذا أنا مت فضعي خدي على الأرض والتراب وضعي قدمك على الخد الآخر ، وقولي : هذا جزاء عبد عصى مولاه ، وخالفه وترك أمره واتبع هواه ، فإذا دفنتني فارفعي يدك إلى الله عز وجل وقولي : اللهم إني رضيت عنه فارض عنه ، فلما مات فعلت به جميع ما أوصاني به ، فلما رفعت رأسي إلى السماء ، سمعت صوتاً بلسان فصيح : انصرفي يا أماه فقد قدمت على رب كريم غير غضبان عليّ ، فلما سمعت ذلك ضحكت .

[**قال منصور بن عمار رحمة الله عليه**] : إذا دنا موت العبد قسم حاله على خمسة أقسام : المال للوارث ، والروح لملك الموت ، واللحم للدود ، والعظم للتراب ، والحسنات للخصوم . ثم قال : إن ذهب الوارث بالمال يجوز ، وإن ذهب ملك الموت بالروح يجوز ؛ فيا ليت الشيطان لا يذهب بالإيمان عند الموت ، فيكون فراقاً من الرب سبحانه وتعالى ، نعوذ بالله من ذلك فإن كل فراق إلى اجتماع ، وفراق الرب سبحانه وتعالى صعب لا يدركه أحد .

[**وعن محمد بن نعيم** ﷺ **قال**] : قال رسول الله ﷺ : « ما جاءني جبرائيل عليه الصلاة والسلام إلا وهو يرتعد خوفاً من الجبار ولما ظهر على إبليس ما ظهر من المخالفة والطرد بعد القرب والحظوة والعبادة طفق جبرائيل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام يبكيان ، فأوحى الله تعالى إليهما ما لكما تبكيان هذا البكاء ، وإني لا أظلم أحداً ؟ قالا : يا ربنا إنا لا نأمن مكرك : يعني قضاءك وحكمك بالبعد بعد القرب ، وبالشقاء بعد السعادة ، فقال الله تعالى لهما : هكذا كونا لا تأمنا مكري » .

[**وعن عمر** ﷺ] أنه خرج إلى صلاة الجمعة فلقيه إبليس في صورة شيخ عابد . فقال إلى أين يا عمر ؟ فقال : إلى الصلاة . فقال : فقد قضيت الصلاة وفاتتك الجمعة فعرفه فأمسك بتلابيبه وخنقه . وقال له : ويلك ! ألم تكن رأس العابدين ، وقدوة الزاهدين ، فأمرت بسجدة واحدة فأبيت واستكبرت وكنت من الكافرين وأبعدت إلى يوم الدين ؟ فقال : تأدب يا عمر ، هل كانت الطاعة بيدي أم الشقاوة بمشيئتي ؟ أنا كنت أبسط سجادتي تحت قوائم العرش ، ولم أترك من السماء بقعة إلا ولي فيها سجدة وركعة ، ومع هذا القرب قيل لي : ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر : ٣٤ ـ ٣٥] فإن كنت يا عمر قد أمنت مكر الله ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ : [الأعراف : ٩٩] فقال له عمر : اذهب فلا طاقة لي بكلامك .

[**إخواني**] أين الذين كانوا في اللذات يتقلبون ، ويتجبرون على الخلق ويتكبرون ، ضربت

لهم كؤوس المنون فهم لها يتجرعون ، وتركوا الأموال التي كانوا لها يجمعون ، وفارقوا العيش الذي كانوا فيه يتمتعون ، فلو رأيتهم يا هذا في حلل الندامة يرفلون ، ويساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٩] .

إليك منَ مكرك يا سيدي ... كل البرايا دائماً يحذرون ... فكم ذنوب وعيوب مضت
ونحن عنها سيدي غافلون ... نضيع العمر بكسب الخطا ... فنحن في أوقاتها لاعبون
نشاهد الموت ولا نرعوي ... ولا تنبهنا لريب المنون ... بل غفلة تطمس أبصارنا
وشقوة خابت لديها الظنون ... فنحن يا رب الورى كلنا ... إليك من زلاتنا هاربون

لكننا نسأل رب الورى ... عفواً وصفحاً كي تقر العيون
بالمصطفى الهادي شفيع الورى ... هوّنه يا رب علينا يهون

[**وعن عبد الله بن أحمد المؤذن رحمه الله**] قال : كنت أطوف حول الكعبة وإذا برجل متعلق بأستارها وهو يقول : اللهم أخرجني من الدنيا مسلماً لا يزيد على ذلك شيئاً . فقلت له : ألا تزيد على هذا الدعاء شيئاً . فقال لو علمت قصتي ! . . فقلت له : وما قصتك ؟ قال : كان لي أخوان ، وكان الأكبر منهما مؤذناً أذن أربعين سنة احتساباً ، فلما حضره الموت دعا بالمصحف فظننا أنه يتبرك به ويقرأ منه شيئاً فأخذه بيده وأشهد على نفسه من حضر أنه بريء مما فيه ، ثم تحوّل إلى دين النصرانية فمات نصرانياً . فلما دفن أذن الآخر ثلاثين سنة فلما حضره الموت فعل كما فعل الأخ الأكبر فمات على دين النصرانية أيضاً ، نعوذ بالله من مكر الله ، وإني أخاف على نفسي أن أصير مثلهما . فأنا أدعو الله تعالى أن يحفظ عليّ ديني . قال : فقلت : ما كان ذنبهما ؟ قال : كانا يتبعان عورات النساء وينظران إلى الشباب . يا مطلقاً نظره في الشهوات ، يا مستبيحاً للمحرمات ، يا مغروراً باللذات الفانيات ، هلا اعتبرت بأقوام أخرجوا من ديارهم وقد تمسكوا بحبل اغترارهم ، ولم يقبل منهم قول في اعتذارهم عندما نادى منادي إنذارهم ، ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ : [النور : ٣٠] .

واخجلة العبد من إحسان سيده ... واحيرة القلب من ألطاف معناه
واحسرة الطرف كم يرنو لخائنة ... من المآثم لا يرضى بها الله
فكم أسأت فبالإحسان عاملني ... واخجلتي واحيائي حين ألقاه
وكم له من أياد غير واحدة ... وافت إليّ تريني أنه الله
بلطفه وبفضل منه عرّفني ... في حبه كيف أرجوه وأخشاه
يا نفس كم بخفيّ اللطف عاملني ... وقد رآني على ما ليس يرضاه
يا نفس توبي من العصيان وانزجري ... فقد كفى ما جرى لي حسبي الله

[**وعن أبي يزيد البسطامي رحمة الله عليه**] أنه كان إذا توضأ وقعت الزلزلة على أعضائه إلى أن يقوم إلى الصلاة يكبر فيسكت عنه ذلك ، فقيل له في ذلك . فقال : إني أخاف أن تدركني الشقاوة فأتخطى إلى كنائس اليهود والنصارى أو بيعهم ، فنعوذ بالله من مكر الله .

[**وعن سفيان الثوري رضي الله عنه**] أنه خرج إلى مكة حاجاً فكان يبكي من أول الليل إلى آخره في المحمل . فقال له شيبان الراعي : يا سفيان لم بكاؤك ؟ إن كان لأجل المعصية فلا تعصه . فقال سفيان : أما الذنوب فما خطرت ببالي قط صغيرها ولا كبيرها ، وليس بكائي يا شيبان من أجل المعصية ، ولكن من خوف الخاتمة ؛ لأني رأيت شيخاً كبيراً كتبنا عنه العلم وعلم الناس أربعين سنة ، وجاور بيت الله الحرام سنين ، وكان تلتمس بركته ويستسقى به الغيث . فلما مات تحول وجهه عن القبلة ومات إلى الشرق كافراً فما أخاف إلا من سوء الخاتمة . فقال له : إن ذلك من شؤم المعصية والإصرار على الذنوب ، فلا تعص ربك طرفة عين :

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا ... واعصي الهوى فالهوى ما زال فتانا
في كل يوم لنا ميْت نشيعه ... ننسى بمصرعه آثار موتانا
يا نفس ما لي وللأموال أكنزها ... خلفي وأخرج من دنياي عريانا
ما بالنا نتعامى عن مصارعنا ... ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا
كم قد رأينا أناساً صالحين قضوا ... موتاً وقد سلبوا ديناً وإيمانا
واستبدلوا الكفر بالإيمان وانفصلوا ... بسوء خاتمة للموت أعيانا
أبعد خمسين قد قضيتها لعباً ... قد آن تقصيرها قد آن قد آنا
أين الملوك وأبناء الملوك ومن ... كانت تخر له الأذقان إذعانا
صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا ... مستبدلين من الأوطان أوطانا
أخلوا منازل كان العز مفرشها ... واستفرشوا حفراً غبراً وقيعانا
يا راكضاً في ميادين الهوى مرحاً ... ورافلاً في ثياب الغي نشوانا
مضى الزمان وولى العمر في لعب ... يكفيك ما قد مضى قد كان ما كانا

[**وعن حمزة بن عبد الله**] قال : شهدت أبا بكر الشاشي عند موته فقلت له : كيف حالك ؟ قال : كسفينة تدور عند الغرق فلا أدري أنجو بالسلامة وتأتي الملائكة بالبشارة ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ [فصلت : ٣٠] أم تغرق السفينة ، وتأتي الملائكة تقول : ﴿ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٢] أي : بعداً بعداً فلا تصلح لنا . يا خبيث يا عاصي ابك على ظلام قلبك فإنه يضيء إذا بكى السحاب على الربا تبسمت ،

ويحك تقول : أنا تائب وتتوقف ، انهض وبادر فتلاقي خيراً فات إذا صدق التائب في توبته أنسى الله كاتبيه ما كتبا ، وأوحى الله تعالى إلى الأرض أن اكتمي على عبدي :

يا رب قد تبت فاغفر زلتي كرماً ... وارحم بعفوك من أخطا ومن ندما
لا عدت أفعل ما قد كنت أفعله ... عمري فخذ بيدي يا خير من رحما
هذا مقام ظلوم خائف وجل ... لم يظلم الناس لكن نفسه ظلما
فاصفح بعفوك عمن جاء معتذراً ... واغفر ذنوب مسيء طالما اجترما

[إخواني] الشيطان راصد يرصد في جميع المقاصد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ : [النساء : ٧١] لا تسمعوا قوله فإنه كذاب أشر ، ولا تقبلوا نصحه فإنه غشاش ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ : [فاطر : ٦] واعجباً لمن كان في ظهر أبيه آدم كيف يدخل ناراً وقودها الناس والحجارة يا ابن آدم : إنما طردنا إبليس لأنه لم يسجد لأبيك ، فالعجب منك كيف صالحته وهجرتنا :

لا عذر لي قد أتى المشيب ... فليت شعري متى أتوب

إبليس قد غرني ونفسي ... ومسني منهما اللغوب ... إذا انقضى للشقاء ذنب
تجددت بعده ذنوب ... ومن ورائي حلول قبر ... ساكنه مفرد غريب
ولست أدري إذا أتاني ... رسول ربي بما أجيب ... هل أنا عند الجواب مني
أخطىء في القول أم أصيب ... أم أنا يوم الحساب ناج ... أم لي في ناره نصيب

يا رب جد لي على رجائي ... بمنة منك لا أخيب

[وحكى] أن مؤذناً أذن في منارة أربعين سنة ، فصعد يوماً وأذن حتى بلغ قوله : حي على الفلاح ، فوقع بصره على امرأة نصرانية فذهب عقله وقلبه ، فترك الأذان وذهب إليها فخطبها . فقالت : مهري ثقيل عليك ؟ فقال : وما هو ؟ قالت : تدخل في ديني وتترك دين الإسلام فكفر بالله ودخل في دينها . فقالت له : إن أبي في أسفل الدار انزل إليه واخطبني منه فنزل فزلت رجله فسقط ومات كافراً ولم يقض شهوته منها نعوذ بالله من سوء الخاتمة .

[وكذلك يروى] أن أخوين كان أحدهما عابداً والآخر مسرفاً على نفسه ، وكان العابد يتمنى أن يرى إبليس في محرابه فتمثل له يوماً . وقال : يا أسفاً عليك ضيعت من عمرك أربعين سنة في حصر نفسك وإتعاب بدنك . وقد بقي من عمرك مثل ما مضى فأطلق نفسك في شهواتها وتلذذ ثم تب بعد ذلك وعد إلى العبادة فإن الله غفور رحيم . فقال العابد : أنزل إلى أخي في أسفل الدار وأوافقه على الهوى واللذات عشرين سنة ، ثم أتوب وأعبد الله في

العشرين التي تبقى من عمري فنزل ، وقال أخوه المسرف على نفسه قد أفنيت عمري في المعصية وأخي العابد يدخل الجنة وأنا أدخل النار والله لأتوبن وأصعد إلى أخي وأوافقه في العبادة ما بقي من عمري فلعل الله يغفر لي فطلع على نية التوبة ، ونزل أخوه على نية المعصية ، فزلت رجله فوقع على أخيه فماتا جميعاً في السلم فحشر العابد على نية المعصية ، وحشر المسرف على نية التوبة .

[إخواني] فرغوا قلوبكم للاعتبار ، فيما يجري في الليل والنهار ، كم من بعيد قرب ، وكم من قريب أبعد وجفاه الأهل والجار ، وكان حظ الأول الجنة وحظ الثاني النار . فاعتبروا يا أولي الأبصار . ندم العابد على تغيير نيته بلا شك ولا خفا ، وبكى على تفريطه بعد عبادته إذ زل وهفا يودّ لو أن صافي ودّه يرد ويرجع إلى الوفا وسيعلم أنه بنى على شفا جرف هار فاعتبروا يا أولي الأبصار :

أناس أعرضوا عنا بلا جرم ولا معنى أساؤوا ظنهم فينا فهلا أحسنوا الظنا
فإن عادوا لنا عدنا وإن خانوا فما خنا وإن كانوا قد استغنوا فإنا عنهمو أغنى

[وقال الإمام أبو محمد رحمة الله تعالى عليه] : خرج ثلاثة من الزهاد يريدون الحج إلى بيت الله الحرام في وسط السنة متوكلين بغير زاد فنزلوا قرية فيها نصارى فوقع نظر رجل منهم على محاسن امرأة نصرانية فتعلق قلبه بها . فلما عزموا على السفر احتال منهم حيلة وقعد وسار صاحباه وتركاه في القرية فأفشى سره لأبي المرأة فقال له : مهرها ثقيل عليك لا تقدر عليه ، فقال : وما هو ؟ قال : تترك دين الإسلام وتدخل دين النصرانية فتنصر وتزوجها وولد له منها ولدان ومات على دين النصرانية فرجع صاحباه من سياحتهما وسألا عنه ، فقيل له : إنه توفي على دين النصرانية ودفنوه في مقابرهم فذهبا إلى المقبرة فوجدا امرأته وولديه يبكون على القبر فجعل صاحباه يبكيان من بعيد قالت لهما المرأة : مم تبكيان ؟ فقصا عليها القصة وعبادته وزهده وصلاته . فلما سمعت ذلك رق قلبها إلى الإسلام فأسلمت هي وولداها ، فقال الشيخ أبو محمد : سبحان الله مات من كان مسلماً على الكفر وأسلم من كان كافراً فكذلك ينبغي أن يخاف المسلم عاقبة أمره ، ويسأل الله تعالى حسن الخاتمة :

سبحان من خلق الأشيا وقدرها ومن يجود على العاصي ويستره
يخفي القبيح ويبدي كل صالحة ويغمر العبد إحساناً ويشكره
ويغفر الذنب للعاصي ويقبله إذا أناب وبالغفران يجبره
ومن يلوذ به في دفع نائبة يعطيه من فضله عزاً وينصره

ولا يضـــيع مثقـــالاً لمجتهـــد بـــل في المـــآل يربيـــه ويـــدخره
ومـن يكـن قلبـه مـن ذنبـه دنسـاً فبالمـــدامع والتقـــوى يطهـــره
ولـيس للعبـد تصـريف وإن لـه مـــولاه إن شـــاء يغنيـــه ويفقـــره
فلا الحذار ينجـي العبـد مـن قـدر يريـــده الله أو أمـــر يـــدبره
فنســأل الله حقــاً حســن خاتمــة عنـد الممـات وصـفواً لا يكـدره

[**وقال منصور بن عمار رحمة الله تعالى عليه**] : كـان لي أخ في الله يعتقـدني ويـزورني في شـدة ورخاء وكنت أراه كثير العبادة والتهجد والبكاء ففقدته أياماً فقيل لي : هو ضـعيف ، فسـألت عن داره فأتيت الباب فطرقته فخرجت إليّ ابنته فقالت : من تريد ؟ فقلت : فلاناً ، فـدخلت واستأذنت لي ثم عادت وقالت : ادخل فدخلت فوجدته في وسط الدار وهـو مضـطجع علـى فراش وقد اسود وجهه وازرقت عيناه وغلظت شفتاه فقلت له وأنا خائف منه : يا أخـي أكثـر من قول لا إلـه إلا الله ففتح عينيه ونظر إليّ شزراً وغشي عليه فقلت له ثانياً : يا أخي أكثر من قول لا إلـه إلا الله ففتح عينيه نظر إليّ شزراً وغشي عليه فقلت له ثالثاً : يا أخي أكثر من قول لا إلـه إلا الله ولئن لم تقلها لا غسلتك ولا كفنتك ولا صليت عليك ففـتح عينيـه وقـال : يـا أخي يا منصور هذه كلمة حيل بيني وبينها فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظـيم ثم قلت له : يا أخي أين تلك الصلاة والصيام والتهجد والقيام ! فقال : يا أخي كـل ذلـك كـان لغير وجه الله إنما كنت أفعل ذلك ليقال عني وأذكر به وكنت أفعل ذلك رياء الناس فإذا خلوت بنفسي أغلقت الباب وأرخيت الستور وشربت الخمور وبارزت ربي بالمعاصي ودمت على ذلك مدة فأصابني مرض أشرفت فيه على الهلاك ، فقلت لابـنتي هـذه نـاوليني المصـحف ففعلـت فأخذته فجعلت أقرأ فيه حرفاً حرفاً حتى بلغت سورة يس فرفعت المصـحف وقلـت : اللـهم بحق هذا القرآن العظيم إلا ما شفيتني وأنا لا أعود إلى ذنب أبداً ففرج الله عني ، فلمـا شـفيت عدت إلى ما كنت عليه من اللهو واللذات والزهو ، وأنساني الشيطان العهـد الـذي كـان بـيني وبين ربي وبقيت على ذلك مدة من الزمان فمرضت مرضاً أشـرفت فيـه علـى المـوت فـأمرت أهلي أن يخرجوني إلى وسط الدار على عـادتي ، ثم دعـوت بالمصـحف فقـرأت فيـه ثم رفعتـه وقلت : اللهم بحرمة ما في هذا المصحف الكريم ، من كلامك القديم ، إلا ما فرجت عـني . فاستجاب الله مني وفرج عني . ثم عدت إلى ما كنت عليه من الهوى والغـي فوقعـت في هـذا المرض فأمرت أهلي فأخرجوني إلى وسط الدار كما تراني ؛ ثم دعوت بالمصحف لأقرأ فيه فلم يتبين فيه لي حرف واحد فعلمت أن الله سبحانه وتعالى قد غضب عليّ فرفعت رأسي إلى السماء

وقلت : اللهم بحرمة هذا المصحف إلا ما فرجت عني يا جبار الأرض والسماء . فسمعت هاتفاً يقول ولم أر شخصه :

تتوب من الذنوب إذا مرضتا ... وترجع للذنوب إذا بريتا ... إذا ما الضرّ مسك أنت باك

وأخبث ما يكون إذا قويتا ... فكم من كربة نجاك منها ... وكم كشف البلاء إذا بليتا

وكم غطاك في ذنب وعنه ... مدى الأيام جهراً قد نهيتا ... أما تخشى بأن تأتي المنايا

وأنت على الخطايا قد دهيتا ... وتنسى فضل رب جاد فضلاً ... عليك ولا ارعويت ولا خشيتا

وكم عاهدت ثم نقضت عهداً ... وأنت لكل معروف نسيتا

فدارك قبل نقلك عن ديارك ... إلى قبر إليه قد نعيتا

[**قال منصور بن عمار**] : والله ما خرجت من عنده إلا وعيني تسكب العبرات فما وصلت إلى الباب إلا وقيل لي : قد مات فلان فنسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن الخاتمة فكم من نفس مكر بها بعد أن كانت صائمة قائمة .

[**وحكى عبد الله الموصلي**] قال : كان عندنا رجل موله يدعى بقضيب البان وكان لا يقدر أحد أن يكلمه من عظم حرمته وهيبته وكان كثير البكاء ، فجمعتني به المقادير في خلوة له فقلت : يا سيدي بالذي شغلك به عمن سواه ما كان سبب توهلك وانفرادك عن الناس ؟ فنظر لي وبكى بكاءً شديداً ثم اصفر لونه واضطرب وغشي عليه فظننت أنه قد مات ، فلما أفاق وآنسته بالكلام ولاطفته بالخطاب ، وسألته عن حاله وأقسمت عليه حدثني وهو يبكي وقال : كنت أخدم شيخي وكان من الأبدال فخدمته أربعين سنة وهو مجتهد في العبادة ؛ فلما كان قبل موته بثلاثة أيام دعاني وقال : يا ولدي يا عبد الله لي عليك حق ولك عليّ حق ومن تمام حقي عليك أن تصغي لما أقول وتحفظ وصيتي ، فقلت له : حباً وكرامة ، فقال : بقي من عمري ثلاثة أيام وأموت على غير فطرة الإسلام ، فإذا أنا مت فضعني في تابوت بثيابي ، واحمل تابوتي في الليل إلى أرض كذا في ظاهر البلد وامكث حتى تطلع الشمس ، فإذا رأيت جماعة قد جاؤوا معهم تابوت فوضعوه إلى جانب تابوتي وأخذوا تابوتي ومضوا فخذ التابوت الذي جاؤوا به وعد إلى الزاوية فافتحه وأخرج الرجل الذي فيه وأفعل معه ما كان يجب عليك أن تفعله معي والسلام ، فبكيت وقلت : يا سيدي كيف يكون هذا الأمر ؟ فقال : يا ولدي هذا جرى في اللوح المحفوظ ولله الأمر من قبل ومن بعد ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ : [الأنبياء : ٢٣] فلما كان بعد ثلاثة أيام اضطرب الشيخ وتغير لونه واسود وجهه ودار إلى ناحية الشرق وانكب على وجهه ومات فبكيت بكاءً شديداً ولحقني عليه من الحزن ما لم يعلمه إلا الله عزّ وجلّ ثم ذكرت وصيته

فوضعته في تابوت . فلما كان الليل خرجت به إلى الأرض التي سماها فوضعته ومكثت حتى طلعت الشمس ، فإذا بجماعة قد أقبلوا ولهم عويل ومعهم تابوت فوضعوه إلى الأرض جانب ذلك التابوت وتقدم رجل منهم فحمل التابوت الذي كان معي ومضى فتعلقت به ، وقلت : لا سبيل لك إلى أخذ هذا التابوت حتى تخبرني بخبرك ؟ فقال : أنا خادم هذا البطرق منذ أربعين سنة . فلما كان قبل موته بثلاثة أيام أحضرني وقال : يا ولدي لي عليك حق ولك عليّ حق ومن تمام حقي عليك إذا أنا مت بعد ثلاثة أيام فضعني في التابوت واحملني إلى المكان الفلاني وذكر هذا المكان فإذا وجدت تابوتاً موضوعاً فخذه وضع التابوت الذي أنا فيه مكانه واحمله إلى الكنيسة وما كان يجب عليك أن تفعله في حقي فافعله مع صاحب ذلك التابوت والسلام ! فلما كان بعد ثلاثة أيام تهلل وجهه بالفرح ونطق بالشهادة ومات مسلماً ففعلت ما أمرني به وقد جئت به . قال عبد الله : فحملت التابوت الذي جاء به ومضيت به إلى الزاوية ففتحته فإذا فيه شيخ وعلى وجهه أنوار وشيبة بيضاء عليها وقار فأخرجته من التابوت ونزعت ثيابه وغسلته أنا والفقراء وصلينا عليه ودفناه في الزاوية وكان يوماً مشهوداً فخرجت هائماً على وجهي من خوف الخاتمة وسوء المنقلب فهذا كان سبب توهي . فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة ونعوذ بالله من مكره تعالى فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون :

يا ويح من ضلّ سبيل الهدى ... وفاته منك بلوغ المرام ... ومن إلى حصنك آويته
فركنه في عزة لا يضام ... كم صالح قد صفّ أقدامه ... في الليل يبكي بالدموع السجام
وما له حظ سوى أنه ... أشقاه مولاه بطول القيام ... وكم قريب خاب سعياً وما
نال سوى التعذيب والانتقام ... وكم بعيد نال ما يرتجي ... ونال في عقباه أعلى المقام
يا أيها اللوّام كفوا فمن ... دليله من جبره لا يلام ... من لم يكن أهلاً لوصل فما
يفيده القرب ولا الاعتصام ... فسطوة الأقدار لا تعتدي ... فانتبهوا من نومكم يا نيام
يا أيها المذنب قم واعتذر ... وتب من الذنب وكسب الأثام ... إلى متى أنت ترى غادياً
ورائحاً في اللهو طوع الغرام ... أنب إلى الله وتب واستقم ... من قبل أن تشرب كأس الحمام
وإن تخف قبح ذنوب مضت ... فلذ بمولى الحق خير الأنام ... محمد المختار من هاشم
أفضل من حج وصلى وصام ... صلى عليه الله ما أشرقت ... طلائع الصبح وولى الظلام

اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمد نبيك العظيم ورسولك الكريم . والداعي إلى الصراط المستقيم . اللهمّ إنا قد توسلنا بجاهه إليك ، واعتمدنا بشفاعته لديك ، أن تؤمن خوفنا ، وتستر عيوبنا ، وتغفر ذنوبنا . إلهي إن كنت لا تقبل إلا المجتهدين ، فمن للمقصرين ؟ وإن كنت لا ترحم إلا الطائعين ، فمن للعاصين والمذنبين ؟ . إلهي قد علمنا السوء من أنفسنا فتب علينا . إلهي هب لنا من فضلك ما تغنينا به عمن سواك . ومن عفوك ما تؤوينا به إلى

ركنك وحماك . إلـهي ارزقنا توفيق الطاعة وبغض المعصية ،وإخلاص النية ، وحسن الطوية ، والرجوع إليك بالكلية ، وارحمنا رحمة تجبر بها كسرنا ، وتغني بها فقرنا ، وتكفر بها وزرنا ، وترفع بها قدرنا ، وانفعنا بما سمعناه من كلامك القديم ، وحديث رسولك الكريم ، وشفعه في تقصيرنا يوم لا ينفعنا مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم برحمتك يا أرحم الراحمين آمين .

المجلس الثالث

في ذكر الموت وزيارة القبور والترحم على أهلها

الحمد لله المستحق لغاية التحميد ، المتوحد في كبريائه من غير تكييف ولا تحديد ، العليّ القويّ الوليّ الحميد ، الغنيّ المغني المبدىء المعيد ، المعطي الذي لا يفنى عطاؤه ولا يبيد ، المانع فلا معطي لما منع ولا رادّ لما يريد . خلق الخلائق وسلكهم أحسن الطريق إلى الأمر الرشيد ، وصورهم فأحسن صورهم وبشرهم في الجنة بالنعيم والتخليد ، وبصرهم بعين الاعتبار وحذرهم من عذاب النار والوعيد . وألزمهم شكره وضمن لهم كنز فضله المزيد ، وحكم عليهم بالموت فما لأحد عنه محيص ولا محيد ، فكم أبكى خليلاً بفراق خليله ، وكم أيتم وليداً وشغله ببكائه وعويله ، فهو لا يبدىء بفرط حزنه ولا يعيد . هدم بالموت مشيد الأعمار وحكم بالفناء على أهل هذه الدار الأحرار منهم والعبيد ، أوحش المنازل من أقمارها ، ونفر طيور الأرواح من أوكارها ، وعوضهم من لذة العيش بالتنغيص والتنكيد . فالملك والمملوك والغني والصعلوك تساوت قبورهم في القفر والبيد . فسبحان من أذلّ بالموت من الجبابرة كل جبار عنيد ، وكسر به من الأكاسرة كل بطل صنديد ، أخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور وقطع حبل أمدهم المديد . أخذ به الآباء والجدود والأطفال من المهود ، فأسكنهم اللحود ، وعفر وجوههم في الصعيد وساوى في الموت بين الصغير والكبير والغنيّ والفقير والمأمور والأمير والوالد والوليد . أفنى به الذكور والإناث فهم في سجن الأحداث إلى يوم الوعيد . أفلا يعتبر الغافل بمصرعهم . وقد أفناهم الموت بأجمعهم وفرّق شملهم بالتبديد . فكيف يغتر الإنسان وهو عالم بأن الله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ولم يكن له عنه محيد . أما كانت نفوسهم بذلك عالمة ؟ وهي من الموت غير سالمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ : [هود : ١٠٢] أين أهل المدن

والحصون ؟ أين أرباب المعاني والفنون ؟ أين المحصنون بكل حصن منيع وقصر مشيد ؟ أين الأمم الماضية ؟ أين أرباب القصور العالية ؟ حق عليهم الوعيد ، فلو عاينتهم في قبورهم لعجبت من أمورهم ؛ قد غير البلى أحوالهم ومزق أوصالهم ، ولم يعرف منهم الأحرار من العبيد . أما أصبح منهم ذو الشدة والبأس بعد القرب والإيناس في ظلمة اللحود وحيد . أما وعظهم الموت بمن أخذ من شقي وسعيد وقريب وبعيد . أما أنذرهم قول الملك الحميد : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ : [ق~ : ١٩] .

ويحك نبه نفسك ... واعمل لما تلقي غداً الموت يأتي بغتةً ... وليس منه محيد
إن كنت يا صاح نائم ... لا بد في القبر تنبه وأنت فيه محير ... عما تريد بعيد
من لك إذا مت ملك ... من كان يهوي صحتك وحزت لحدك وحدك ... مفلس غريب وحيد
أهل القبور يتمنوا ... ما أنت فيه مجتهد وليس تدري من هو ... منهم شقي وسعيد
فدع دموعك تجري ... قبل أن يقال لمن عصى ألم تكن قبل تدري ... إن الحساب شديد
كل القلوب قد لانت ... لكن قلبك قد قسا كأن قلبك أضحى ... بين القلوب حديد
ويحك فهيِّىء زادك ... واحذر تفند يا فتى قبل أن تسافر بغتة ... ما ينفع التفنيد

[**وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه**] قال : « أتيت رسول الله ﷺ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله من أكيس الناس ؟ قال : أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرم الآخرة » .

[**وعن عائشة رضي الله تعالى عنها**] قالت : « قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحبّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » ، فقلت : يا رسول الله أكراهية الموت فكلنا نكره الموت ، فقال : ليس ذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحبّ لقاء الله فأحب الله لقاءه ، والكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله فكره الله لقاءه » ذكره مسلم . وذكر مسلم بن الحجاج من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، قال : فإن كان لا بد متمنياً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي » فاجتهد أيها العبد في العمل الصالح اشفق من كأس لا بد أنك ذائقه وارحل عن عيش لا بد أنك مفارقه ، يا ناسياً للرحيل وقد حث نجيب الرحيل سائقه اعتبر بمن سبقك فإنما يعطي المنى سابقه :

ألا أيها القلب الكثير علائقه ... ألم تر أن الدهر تجري بوائقه
رويدك لا تنس المقابر والبلى ... وطعمة كأس الموت إنك ذائقه
ألا أيها الباكي على الميت بعده ... رويدك لا تعجل فإنك لاحقه

إذا اعتصم المخلوق من فتن الهوى بخالقه أنجاه منهن خالقه
أرى صاحب الدنيا مقيماً بجهله على ثقة من صاحب لا يفارقه
ولا تتمن الموت يا صاح إنه سيأتيك منه عن قريب طوارقه

[**ويروى**] عن النبي ﷺ أنه قال : « ما الميت في قبره إلا كالغريق المغوث ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديق له ، فإذا لحقته كانت أحبّ إليه من الدنيا وما فيها » . وقال رسول الله ﷺ : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا بْنَ آدم ما غرك بي ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك بي إذ كنت تمر بي فإن كان صالحاً أجاب عنه مجيب القبر ، فيقول : أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر إذاً تحوّل عليه روضة خضراء ويعود جسمه نوراً وتصعد روحه إلى الله عزّ وجلّ » :

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بُعِثْنا ونسأل بعده عن كل شيّ

[**وروى**] إسماعيل بن محمد عن كعب الأحبار رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا يمرّ أحد في المقابر إلا وتناديه أهل القبور يا غافل لو علمت ما نحن نعلم لذاب لحمك وجسمك كما يذوب الثلج على النار » . وقال ﷺ : « من أراد أن يزور قبراً فليزره ، ولا يقول إلا خيراً فإن الميت يتأذى مما يتأذى منه الحي » .

[**ويروى**] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما من رجل يمرّ على قبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام .

تناجيك أموات وهن سكوت وسكانها تحت التراب خفوت أيا جامع الدنيا لغير بلاغه
لمن تجمع الدنيا وأنت تموت وإنكمو إذ ما علينا تسلموا نرد عليكم واللسان صموت

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم : يا أبا حازم ! ما لنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب . قال : يا أبا حازم كيف القدوم على الله تعالى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أما المحسن فكالغائب يأتي أهله فرحاً ، وأما المسيء فكالعبد الآبق يأتي مولاه خائفاً محزوناً .

[**وقال أبو سليمان الداراني رحمة الله عليه**] : قلت لأم هارون العابدة : أتحبين أن تموتي ؟ قالت : لا ، قلت : ولِمَ ؟ قالت : والله لو عصيت مخلوقاً لكرهت لقاءه فكيف بالخالق جلّ جلاله ؟ :

وكيف يلذ العيش من هو عالم بأن إلّه الخلق لا بد سائله فيأخذ منه ظلمه لعباده
ويجزيه بالخير الذي هو فاعله وكيف يلذ العيش من كان صائرا إلى لحد قبر فيه تبلى شمائله

ويذهب رسم الوجه من بعد ضوئه قريباً ويبلى جسمه ومفاصله

[**وقال أبو بكر الكتاني رحمة الله عليه**] : كان رجل يحاسب نفسه على سيئاته وخطاياه فحسب يوماً سنينه فوجدها ستين سنة فحسب أيامها فوجدها أحداً وعشرين ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ صرخة وخرّ مغشياً عليه ، فلما أفاق قال : يا ويلتاه وأنا آتي ربي بأحد وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب يقول هذا لو كان في كل يوم ذنب واحد ، فكيف بذنوب لا تحصى . ثم قال : آه عليّ عمرت دنياي وخربت آخرتي وعصيت مولاي الوهاب . ثم لا أشتهي النقلة من العمران إلى الخراب ، وكيف أقدم في يوم الحساب على الكتاب والعذاب بلا عمل ولا ثواب ؟ .

منازل دنياي عمرتها وخربت داري في الآخره
فأصبحت أنكر دارَ الخرا ب وأرغب في داري العامره

ثم شهق شهقة عظيمة وقع على الأرض فحركوه فإذا هو ميت ، رحمة الله عليه .

[**وقال أبو عمر الضرير**] : حدثني سهل أخو حازم ، قال : رأيت مالك بن دينار في المنام بعد موته فقلت له : يا أبا يحيى بماذا قدمت على الله عزّ وجلّ ؟ قال : قدمت عليه بذنوب كثيرة محاها حسن ظني بالله عز وجل .

يظن الناس بي خيراً وإني أشر الناس إن لم تعف عني
وما لي حيلة إلا رجائي وجودك إن عفوت وحسن ظني

[وسئل] بعض الزهاد : كيف حالك ؟ فقال : كيف حال من يريد سفراً بلا زاد ويسكن قبراً موحشاً بلا مؤنس ، ويقدم على مالك قادر بغير حجة :

تعطف بفضل منك يا مالك الورى فأنت ملاذي سيدي ومعيني
لئن أبعدتني عن حماك خطيئتي فأنت رجائي شافعي ويقيني
ولست أرى لي حجة أبتغي بها رضاك وإن العفو منك يقيني

[**ويروى**] عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : أنه وقف على قبر فبكى ، فقيل له : إنك تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا . فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن ينج منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » ووجد على قبر مكتوباً :

سلام على أهل القبور الدوارس كأنهمو لم يجلسوا في المجالس ولم يشربوا من بارد الماء نهلة
ولم يطعموا من كل رطب ويابس ولم يك منهم في الحياة منافس طويل المنى فيها كثير الوساوس
ألا ليت شعري أين قبر دليلكم وقبر العزيز الشامخ المتشاوس لقد سكنوا في موحش الترب والثرى
فها هم بها ما بين راج وآيس ولو عقل المرء المنافس في الذي تركتم في الدنيا له لم ينافس

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه : ويحك يا يزيد من ذا يصلي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يتوضأ عنك بعد الموت ؟ . ثم يقول : أيها الناس لم لا تبكون على نفوسكم باقي حياتكم ، فمن يكن الموت موعده والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه ، وهو مع ذلك ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله وكيف يكون مآله . ثم يبكي حتى يسقط مغشياً عليه :

ماذا يكون مآل المرء بعد هنا عيش وآخره موت سيعقبه
والدهر يفجعه فيمن يسرّ به والموت عن كل ما يهواه يحجبه
وحادثات لياليه تروعه جهراً فيمزج بالتنغيص مشربه
يلهو ويحسب أياماً يغرّ بها وللمنية قرب ليس يحسبه

[ويروى] أن امرأة شكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة في قلبها فقالت لها : أكثري من ذكر الموت يرق قلبك ، ففعلت ذلك فرق قلبها فشكرت عائشة رضي الله عنها .

ومرض أبو الدرداء رضي الله عنه ، فقالوا له : أي شيء تشتهيه ؟ قال : الجنة ، قالوا : أندعو لك طبيباً ؟ قال : الطبيب أمرضني ، فقال له رجل من أصحابه : يا أبا الدرداء أتشتهي أن أساهرك الليلة ؟ فقال له أبو الدرداء : أنت معاف وأنا مبتلى والعافية لا تدعك أن تسهر ، والبلاء لا يدعني أن أنام . ثم قال : أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يهب لأهل العافية الشكر ولأهل البلاء الصبر :

وإذا ابتليت بشدة فاصبر لها صبر الكرام فما يدوم مقامها فالله يبلي كي يثيب فلا تضق
ذرعاً بنازلة جرت أحكامها ولرب يوم نازلتك خطوبها ثم انجلى قبل الظلام ظلامها
ولئن جزعت فليس ذاك بنافع إن الأمور قضى بها علامها

[وفي بعض الخطب المروية] أيها الناس : إن الآمال تطوى ، والأعمار تفنى ، والأبدان تحت التراب تبلى ، وإن الليل والنهار يتراكضان كركض البريد ، يقربان كل بعيد ويبليان على جديد وفي كل ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ، وسلى عن اللذات ورغب في الأعمال الباقيات الصالحات :

خليلـــيّ إن العمـــر وافى بلجـــة ... لـــه دائمـــاً نحـــو المنيـــة إعجـــال
وأرواحنـا الأرزاق والمـوت سـاحل ... ومن دونه من عاصف الخطب أهوال
حقيقـــة ذي الـــدنيا محـــال وباطـــل ... ويتبعنـــا فيهـــا حقـــوق وآجـــال
وفي الباقيـــات الصـــالحات كفايـــة ... لمن قصرت منه علـى الـدهر آمـال

[**وروى**] في الخبر : « إن العبد الصالح ليعالج سكرات الموت وكرباته . وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول السلام عليك » . وقيل لحسان بن أبي سنان : كيف تجدك ؟ قال : بخير إن نجوت من النار . قيل له : ما تشتهي ؟ قال : ليلة طويلة أصليها كلها . وقال عبد الله بن عتبة : عدت رجلاً مريضاً فلما قعدت عنده قلت له : كيف تجدك ؟ فأنشدني :

خرجت مـن الـدنيا وقامـت قيـامتي ... غـــداة أقـــلّ الحـــاملون جنـــازتي
وعجل أهلي حفـر قـبري وصـيروا ... خروجـي وتعجيلـي إليـه كـرامتي
كـــأنهمو لم يعرفـــوا قـــط صـــحبتي ... غـداة أتـى يـومي عليـه وسـاعتي

[**وقيـل**] : دخل المزني على الشافعي رضي الله عنه في مرضه الذي مات فيه فقال له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال : أصبحت عن الدنيا راحـلاً وللإخـوان مفارقـاً ولسـوء عملـي ملاقياً ولكأس المنية شارباً وعلى ربي سبحانه وتعـالى وارداً ولا أدري روحـي صـائرة إلى الجنـة فأهنيها أو إلى النار فأعزيها ثم أنشد :

ولما قسا قلبي وضاقت مـذاهبي ... جعلت الرجا منك لعفوك سـلما ... تعـاظمني ذنـبي فلمـا قرنتـه
بعفوك ربي كان عفـوك أعظمـا ... فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تـزل ... تجـود وتعفـو منـة وتكرّمـا

فلـولاك لم يغـوى بـإبليس عابـد ... فكيـف وقـد أغـوى صـفيك آدمـا
فيا ليـت شـعري هـل أصـير لجنـة ... فـأهنى وإمـا في السـعير فأنـدما

[**ويـروى**] أن رجلاً جاء إلى مقبرة فصلى ركعتين ثم اضطجع فرأى في منامه صـاحب القـبر فقال له : يا هذا إنكم تعملون ولا تعلمون ونحن نعلم ولا نعمـل والله لأن تكـون ركعتـان في صحيفتي أحب إليّ من الدنيا وما فيها .

[**ويروى**] أن بعض المتعبدين أتى قبر صاحب له كان يألفه فأنشد يقول :

ما لي مـررت علـى القبـور مسـلما ... قـبر الحبيـب فلـم يـردّ جـوابي ... أحبيب مالـك لا تجيـب مناديـا
أمللت بعدي خلـة الأصـحاب ... لو كان ينطق بالجواب لقـال لي : ... أكـل التـراب محاسـني وشـبابي

قال : فهتف بي هاتف من جانب القبر يقول :

قال الحبيب وكيف لي بجوابكم وأنا رهين جنادل وتراب أكل التراب محاسني فنسيتكم
وحجبت عن أهلي وعن أصحابي فعليكم مني السلام تقطعت عني وعنكم خلة الأصحاب
وتمزقت تلك الجلود صفائحاً يا طالما لبست رفيع ثياب وتفصلت تلك الأنامل من يدي
ما كان أحسنها لخط كتابي وتساقطت تلك الثنايا لؤلؤاً ما كان أحسنها لردّ جوابي

وتساقطت فوق الخدود نواظري يا طالما نظرت بها أحبابي

[**وقال ثابت البناني رضي الله عنه**] : دخلت المقابر لأزور القبور وأعتبر بالموتى وأتفكر في البعث والنشور وأعظ نفسي لعلها ترجع عن الغيّ والفجور ، فوجدت أهل القبور صموتاً لا يتكلمون وفرادى لا يتزاورون فأيست من مقالهم واعتبرت بأحوالهم ، فلما أردت الخروج إذا بصوت يقول : يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس معذبة فيها .

[**وقيل**] : مرّ داود الطائي بامرأة تبكي على قبر وهي تنشد هذه الأبيات :

عدمت الحياة فلا نلتها إذا أنت في القبر قد أوسدوكا
وكيف ألذّ بطعم الكرى وها أنت في القبر قد أفردوكا

ثم قالت : يا أبتاه بأيّ خديك بدأ الدود ؟ قال : فخر داود مغشياً عليه .

[**وقيل**] : لما حضرت حسن بن هانىء الوفاة وأيقن بالموت وتحقق لقاه أنشد :

دب فيّ السقام سفلاً وعلوا وأراني أموت عضواً فعضوا ليس من ساعة مضت بي إلا
نقصتني بمرها بي حزوا لهف قلبي على ليال تقضت وسنين مضين لعباً ولهوا

قد أسأنا كل الإساءة جهراً ومن الله نطلب الآن عفوا

[إخواني] انتبهوا من رقدة الهجوع وافزعوا إلى الله تعالى بالتضرع والخشوع . فكأنكم بالموت وقد فرق الجموع ، وأخلى القصور والربوع ، وأمطر عليهم سحائب الدموع ، وناداهم المشوق بطرف باك وقلب موجوع :

معارف في الثرى هجوع فالقلب من بعدهم صدوع تكدرت بعدهم حياتي
فأوحشت منهم الربوع كانوا سروري ونور عيني فما لها بعدهم هجوع
ماتوا فأودى لذيذ عيشي وبالأسى ذابت الضلوع يا نفس كم من جموع وصل
فرقها البين والولوع يا نفس للموت فاستعدي فالموت إتيانه سريع
فلا مليك ولا شريف في الدهر يبقى ولا وضيع ولا سعيد ولا شقي
ولا عصي ولا مطيع يا نفس إن الأصول ماتت فما عسى تلبث الفروع

[**قال مالك بن دينار رحمة الله عليه**] : أتيت القبور على سبيل الزيارة والتذكار ، والتفكر في الموت والاعتبار ، فتمنيت من يخبرني عنهم بخبر ، أو يقص لي من آثارهم بعض أثر ، فقلت بلسان أحزاني ما قدحت زناد أشجاني من الفكر :

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه ... وأين العزيز إذا ما افتخر

قال : فنوديت من بين القبور ، وأنا بالوجد مغمور :

تفانوا جميعاً فلا مخبر ... وماتوا جميعاً وصاروا عبر وعادوا إلى ملك عادل
عزيز مطاع إذا ما أمر ... تروح وتغدو بنات الثرى فتمحي محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا ... أمالك فيمن مضى معتبر

قال مالك بن دينار : فرجعت أبكي بالدموع الغزار ، واعتبرت بذلك أي اعتبار .

[**وقال بعض الصالحين**] : زرت مرة القبور حين عج بقلبي لهيب النار : فأقمت عندها برهة من الزمان أنظر إليها بعين الاعتبار ، وأناجي صرعاها بالعشي والإبكار ، وأجلس إليها في الأصائل والأسحار ، فجال فكري في مجال التفكر والاعتبار بخطاب نظمته من محاسن الأشعار :

أأحبابنا فارقتمونا فأوحشت ... قلوب لنا من بعدكم وديار
فكم قد تذاكرنا محاسن من مضى ... فجاءت دموع للفراق غزار
قضوا وقضيتم ثم نقضي فلا بقا ... لحي وكاسات المنون تدار
وكنا وإياكم نزور مقابراً ... ومتم فزرناكم وسوف نزار
سقت ديمة الرضوان رياً ثراكمو ... وسحت لها في ساحتيه بحار

فأجاب لسان الحال في الحال عما أبديت من المقال :

يقول لسان الحال إذ أخرس الردى ... لساناً لهم منه الفصيح يغار
شربنا بكأس أسكرتنا مريرة ... ألا رب سكر ما حواه عقار
فلا يغترر بالله من عاش بعدنا ... بعيش فأيام الحياة قصار
وإنا وجدنا خير أزوادنا التقى ... هو الربح حقاً ما عداه خسار
وما العيش إلا زورة الطيف في الكرى ... وما هذه الدنيا الدنية دار

يا من ركن إلى الدنيا بإقامة وثبات احذر أسد الموت فإن له وثبات كيف تركن إلى اللذات

وقد جاء في طلبك الممات واعتَبر يا هذا بمصارع الهالكين ففيهم لذي التفكر عظات :

لقد زرت أقواماً كراماً أحبهم ... وهم تحت أطباق الثرى فيه أموات
وواصلتهم من بعد بين وفرقة ... فكان لنا فيهم عظات وإنصات
وأعجب شيء في الوجود اجتماعنا ... ونحن على ذاك التواصل أشتات

[وروى] أنه وجد على قبر مكتوب :

اصبر لدهر نال منـ ... ـك فهكذا مضت الدهور
فرحاً وحزناً مرة ... لا الحزن دام ولا السرور

[**وقال الأصمعي رحمة الله عليه**] : كنت كثير التفكر في عجائب الأمور . وأجيل الفكر في البعث والنشور . وأتسلى بقراءة الكتابة على القبور . فمن ذلك رأيت ثلاثة قبور على صف وعليها لوح مكتوب عليه :

ألا قل لماش على قبرنا ... غفول لأشياء حلت بنا
سيندم يوماً لتفريطه ... كما قد ندمنا لتفريطنا

وقال أيضاً : وجدت على حجر مكتوباً في المقبرة :

وقفت على الأحبة حين صفت ... قبورهمو كأفراس الرهان
فلما أن بكيت وفاض دمعي ... رأت عيناي بينهمو مكاني

قال : ومشيت قليلاً ودمعي مسكوب ، وقلبي من فراق الأحباب مسلوب ، فوجدت على قبر لوحاً وعليه مكتوب هذه الأبيات :

يا أيها الناس كان لي أمل ... قصر بي عن بلوغه الأجل ... فليق الله ربه رجل
أمكنه في حياته العمل ... ما أنا وحدي جعلت حيث ترى ... كل إلى ما نقلت ينتقل

وقال : وجدت على قبر مكتوباً :

قف واعتبر فقريبا ... تحلّ هذا المحلا ... هذا مكان يساوي ... فيه الأعز الأذلا

وقال : وجدت امرأة تبكي على قبر ولدها وتنشد :

بالله يا قبر هل زالت محاسنه ... وهل تغير ذاك المنظر النضر
يا قبر ما أنت لا روض ولا فلك ... فكيف يجمع فيك الشمس والقمر

وقال أيضاً : مررت يوماً بقبور كنت أعرف أهلها أهل سرور ولذات ورفاهية وشهوات . فرأيت في لوح منها مكتوباً هذه الأبيات :

أيها الماشي بين هذي القبور ... غافلاً عن معقبات الأمور
ادن مني أنبيك عني ولا ينـ ... ـبيك عني يا صاح مثل خبير
أنا ميت كما تراني طريح ... بين أطباق جندل وصخور

أنا في بيت غربة وانفراد ... مع قربي من جيرتي وعشيري ... ليس لي فيه مؤنس غير سعي
من صلاح سعيته أو فجور ... فكذا أنت فاعتبر بي وإلا ... صرت مثلي رهين يوم النشور

[**وروى عن الفضيل بن عياض ، وقيل ابن الموفق رحمة الله عليه**] قال : كنت آتي قبر أبي المرة والمرتين وأكثر زيارته فشيعت يوماً جنازة إلى المقبرة التي أبي فيها وكان ورائي شغل فتعجلت الرواح فلم أزره . فلما كان الليل رأيته في المنام . فقال : يا بني إنك أتيت بالأمس ولم تأتني . فقلت : يا أبت وإنك لتعلم بي إذا أتيتك . فقال : إي والله يا بني إنك لتأتيني فلا أزال أنظر إليك حين تجوز القنطرة إلى أن تصل إليّ وتقعد عندي ثم تقوم فلا أزال أنظر إليك حتى تجوز القنطرة .

[**ويروى**] أن فارساً مرّ بغلام فسأله : يا غلام أين العمران ؟ فقال له : اصعد الشرف فصعد فأشرف على المقبرة فقال : إن هذا الغلام إما جاهل أو حكيم فرجع إليه فقال له : سألتك عن العمران فدللتني على المقابر ؟ فقال الغلام : إني رأيت أهل تلك ينقلبون إلى هذه ولم أر أحداً ينقلب من هذه إلى تلك وإنما ينقلب من الخراب إلى العمران ولو سألتني عما يواريك ودابتك لدللتك ثم أنشد :

نفس زوري القبور واعتبريها ... حيث فيها لمن يزور عظات
وانظري كيف حال من حلّ فيها ... بعد عز وهم بها أموات
حرصوا أملوا كحرصك يا نفس ... ووافاهم الحمام فماتوا
فالسراة العظام منهم عظام ... في بطون الثرى حطام رفات
فكأن قد حللت في مصرع القو ... م وحلت بجسمك المثلات

[**وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما**] عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من يوم إلا وملك الموت يهتف في المقابر فينادي يا أهل القبور من تحسدون اليوم ؟ فيجيبونه فيقولون : نحسد أهل المساجد في مساجدهم يصلون ولا نقدر أن نصلي ، ويصومون ولا نقدر أن نصوم ، ويتصدقون ولا نقدر أن نتصدق ، ويذكرون ولا نقدر أن نذكر فيندمون على ما مضى من زمانهم » :

رب يـا ربـاه هـذا جسـدي تحـت أطبـاق الثـرى مرتهنـا مـا أرى لي عمـلاً لكـن أرى
يـا الّـهي فيـك ظـني حسـنا وعلى عفوك يـا ذا الفضـل قـد كنـت في دنيـاي أحسـنت الثنـا

فأقـل عثـرة عبـد مـذنب وتجـاوز واعـف عنـه محسـنا

[**وعن الأوزاعي رحمة الله عليه**] قال : مرّ ميسرة بن الحسين بالمقابر يوماً وكان يسكن المصيصة وقائده يقوده وكان مكفوف النظر حتى إذا صار إلى المقبرة قال له قائده : هذه المقبرة يا ميسرة ، فقال : السلام عليكم يا أهل القبور أنتم لنا سلف ونحن لكم خلف ، فرحمنا الله وإياكم وغفر لنا ولكم وبارك لنا ولكم في القدوم عليه إذا صرنا إلى مـا صـرتم إليـه ، قـال : فـرد الله تعـالى الروح إلى رجل منهم فأجابه بلسان فصيح ، فقال : طوبى لكم يا أهل الدنيا تحجون في الشـهر أربع مرات . قال ميسرة : وكيف نحج في الشهر أربـع مـرات يرحمـك الله ؟ قـال : المشـي إلى الجمعة ، أما تعلمون أنها حجة مبرورة متقبلة ؟ قال : فأخبرني بما قدمتم عليه ونفعكم يـرحمكم الله ؟ قال : الاستغفار لأهل الدنيا أنفع الأشياء في الآخرة ، قال : فما منعكم أن تردوا السلام علينا ؟ قال : السلام حسنة والحسنات قد رفعت عنا فلا حسنة تزيد ولا سـيئة تـنقص ، وقـد رضينا منكم بقولكم رحم الله فلاناً المتوفى ، فاغتنموا رحمكـم الله الأعمـال الصـالحة واجتنبـوا الأعمال الخبيثة واصرفوا هممكم عن عمارة ما يفنى إلى عمارة الأجداث فكأنكم بساقي المنية ، وقد أدار كأسه على الذكور والإناث :

يـا آمـن الأقـدار بـادر صـرفها واعلـم بـأن الطـالبين حثـاث خذ من تراثك ما استطعت فإنمـا
شـركاؤك الأيـام والـورّاث المال مال المرء مـا بلغـت بـه الـ ـشهوات واندفعت به الأحداث

مـا كـان منـه فاضـلاً عـن قوتـه فليـوقنن بأنـه مـيراث
مـا لي إلى الـدنيا الغـرورة حاجـة مـات الـذكور بهـا ومـات إنـاث

[**وقالت عائشة الأندلسية رحمة الله عليها وكانت من الصالحات**] : مات ولـد لي فكنـت أزوره في كل أسبوع مرة ، فكنت إذا قربت من قبره سمعت جيرانه من الموتى يقولون : يـا فـلان هـذه أمك قد جاءت إليك ، فكنت أنظر إلى قبره كأنه يضحك لي فأسرّ بذلك :

لـو كلـم الميـت مـن يشـيعه لقـال لا تغتـر فأنـت أنـا
قـد كنـت ألهـو وغـرني أملـي عـاجلني المـوت مـا بلغـت مـني

[**وقال الحارث بن نبهان رحمه الله**] : كنت أخرج إلى الجبانات فأترحم على أهـل القبـور وأتفكـر فيهم وأعتبر بأحوالهم ، فأنظر إليهم سكوتاً لا يتكلمون وجيراناً لا يتزاورون قد صار لهـم مـن بطن الأرض وطاء ومن ظهرها غطاء وأنادي : يا أهل القبور محيت من الدنيا آثاركم وما محيت

عنكم أوزاركم وسكنتم في دار البلى فتورمت أقدامكم . قال : ثم أبكي بكاءً شديداً ثم أميل إلى قبة فيها قبر فأنام في ظلها . قال : فبينما أنا نائم إلى جانب القبر وإذا بصاحب القبر وفي عنقه سلسلة ، وقد ازرقت عيناه واسود وجهه وهو يقول : يا ويلتي ماذا حل بي لو رآني أهل الدنيا لما ركبوا معاصي الله عز وجل أبداً طولبت والله باللذات فأوثقتني ، وبالخطايا فأغرقتني ، فهل من سامع أو مخبر أهلي بأمري ؟ قال الحارث : فاستيقظت وأنا مرعوب وكاد أن يخرج قلبي من هول ما رأيت ، فمضيت إلى داري وبت ليلتي وأنا متفكر فيما رأيت ، فلما أصبحت قلت : دعوني أعود إلى الموضع الذي كنت فيه بالأمس لعلي أجد به أحداً من زوّار القبور فأعلمه بالذي رأيت . فلما مضيت إلى المكان الذي كنت فيه بالأمس لم أجد به أحداً فنمت وإذا بصاحب القبر يسحب على وجهه وهو يقول : يا ويلتاه ماذا حل بي ساء في الدنيا عملي وطال فيها أجلي ، قد غضب عليّ رب الأرباب ، فالويل لي إن لم يرحمني وينقذني من العذاب . قال الحارث : فاستيقظت وقد توله عقلي مما رأيت وسمعت فرجعت إلى داري وبت ليلتي . فلما أصبحت أتيت القبر لعلي أجد أحداً من زوار القبور فأعلمه الذي رأيت ، فلم أجد أحداً من زوار القبور ، فأخذني النوم فرأيت صاحب القبر ، وقد قرن بين قدميه وهو يقول : ما أغفل أهل الدنيا عني ضوعف عليّ العذاب وتقطعت عني الحيل والأسباب ، وغضب عليّ رب الأرباب ، وغلق في وجهي كل باب فالويل لي إن لم يرحمني العزيز الغفار الوهاب . قال الحارث : فاستيقظت من منامي مرعوباً وهممت بالانصراف وإذا بثلاث جوار قد أقبلن كأنهن الأقمار فتباعدت عنهن وتواريت عن التربة لكي أسمع كلامهن ، فتقدمت الصغرى حتى وقفت وقالت : السلام عليك يا أبتاه كيف أصبحت وكيف هدوءك في مضجعك وكيف قرارك في موضعك ؟ ذهبت عنا بودِّك وانقطع عنا خير سؤلك فما أشدّ حزننا عليك وشوقنا إليك ، ثم بكت بكاءً شديداً ، ثم تقدمت الاثنتان فسلمتا على القبر ، ثم قالتا : هذا قبر أبينا الذي كان شفيقاً علينا والرحيم بنا آنسك الله برحمته وصرف عنك شرّ عذابه ونقمته ، يا أبتاه جرت بعدك أمور وهموم لو عاينتها لأهمتك ولو اطلعت عليها لأحزنتك كشف الرجال وجوهنا ، وقد كنت أنت تسترها . قال الحارث : فبكيت لما سمعت كلامهن ، ثم قمت مسرعاً إليهن فسلمت عليهن وقلت لهن : أيتها الجواري إن الأعمال ربما قبلت وربما ردت على صاحبها فما كان عمل أبيكما المخلد في هذا القبر الذي عاينت من أمره ما أحزنني واطلعت من حاله على ما أبكاني وأهمني . قال الحارث : فلما سمعن كلامي كشفن عن وجوههن وقلن : يا أيها العبد الصالح وما الذي رأيت ؟ قلت : لي ثلاثة أيام أتردد إلى هذا القبر أسمع صوت المقمعة والسلسة فيه . قال : فلما سمعن ذلك قلن لي : هذه بشارة ما أضرها ومصيبة ما أحرّها نحن

نقضي الأوطار ونعمر الديار وأبونا يحرق بالنار ، فوالله لا قرّ لنا قرار ولا أخذنا نوم ولا اصطبار حتى نتضرع إلى الكريم الغفار فلعله يعتق أبانا من النار ثم مضين يعثرن في أذيالهن . قال الحارث : فمضيت إلى داري وبت ليلتي . فلما أصحبت أتيت القبر فجلست عنده وأنا متفكر في حاله ، فغلبني النوم فنمت فإذا بصاحب القبر له حسن وجمال وفي رجليه نعل من ذهب ومعه خدم وغلمان . قال الحارث : فسلمت عليه وقلت له : يرحمك الله من أنت ؟ قال : أنا الرجل الذي عاينت من أمري ما أحزنك واطلعت من حالي على ما أرجفك فجزاك الله عني خيراً ، فما أبرك طلعتك عليّ فقلت له : وكيف كان حالك ؟ فقال : لما طلعت عليّ وأخبرت بناتي بالأمس بحالي ، ورجعن إلى منازلهن أهملن عيونهن وأرسلن شعورهن وتضرعن لمولاهن ومرغن خدودهن في التراب واستوهبنني من العزيز الوهاب فغفر لي الذنوب والأوزار وأنقذني من النار وأسكنني دار القرار بجوار النبي المختار فإذا رأيت بناتي فأعلمهن بأمري وما كان من قصتي ليزول عنهن روعهن ويفارقهن حزنهن ، أعلمهن أني صرت إلى جنان وقصور وولدان وحور ومسك وكافور وفرحة وسرور ، وقد عفا عني العزيز الغفور . قال الحارث : فاستيقظت فرحاً مسروراً لما رأيت وسمعت ، فمضيت إلى داري وبت ليلتي . فلما أصبحت أتيت القبور فوجدتهن حافيات الأقدام عليهن آثار الحزن والاغتمام ، فسلمت عليهن وقلت لهن : أبشرن ، فقد رأيت أباكن في خير عظيم وملك مقيم ، وقد أخبرني أن الله تعالى أجاب دعاءكن ولم يخيب مسعاكن ، وقد وهب لكن أباكن فاشكرنه على ما أولاكن . فقالت الصغرى : اللهم يا مؤنس القلوب ويا ساتر العيوب ويا كاشفاً عنا الكروب ويا غافر الذنوب ويا عالم الغيوب ، قد علمت ما كان من مسألتي ومسكنتي واعتذاري في خلوتي وإقالتي من زلتي وتنصلي من خطيئتي وأنت اللهم تعلم همتي والمطلع على نيتي والعالم بطويتي ومالك رقبتي والآخذ بناصيتي وغايتي في مطلبي ورجائي عند شدتي ومؤنسي في وحدتي وراحمي في غربتي ومقيل عثرتي ومجيب دعوتي ، فإن كنت قصرت في طاعتي وارتكبت ما عنه نهيتني فبجاهك حميتني وبسترك سترتني : فيا أكرم الأكرمين ، ويا منتهى غاية الطالبين ، ومالك يوم الدين ، أنت تعلم ما أخفي في الضمير وتدبر أمر الصغير والكبير ، فإن كنت قضيت حاجتي بفضلك وشفعتني في عبدك أبي الفقير الذليل الحقير ، فاقبض إليك روحي وأنت على كل شيء قدير ، ثم صرخت صرخة فارقت الدنيا رحمة الله عليها . ثم تقدمت الثانية فنادت بأعلى صوتها : اللهم يا رب الأرباب ويا معتق الرقاب من النار والعذاب فرج كربتي وخلص من الشك قلبي ، يا من أقامني من صرعتي وأقالني من عثرتي ودلني من حيرتي وأغاثني في شدتي إن كنت قبلت دعوتي وقضيت حاجتي وعمرت بذلك قلبي فألحقني بأختي ، ثم صرخت صرخة فارقت الدنيا

رحمة الله عليها . قال : ثم تقدمت الثالثة فنادت بأعلى صوتها : يا أيها الجبار الأعظم والملك الأكرم والعالم بمن سكت وتكلم ، لك الفضل العظيم والملك القديم والوجه الكريم ؛ العزيز من أعززته ، والذليل من أذللته ، والشريف من شرّفته ، والسعيد من أسعدته ، والشقي من أشقيته ، والقريب من أدنيته ، والبعيد من أبعدته ، والمحروم من حرمته ، والرابح من وهبته ، والخاسر من عذبته : أسألك باسمك العظيم ، ووجهك الكريم ، وعلمك المكنون ، الذي بعد عن إدراكه الأفهام ، وخفي عن مناولته الأوهام ، وأسألك باسمك الذي جعلته على الليل فدجا ، وعلى النهار فأضاء ، وعلى الجبال فتدكدكت ، وعلى الرياح فعصفت ، وعلى السماوات فارتفعت ، وعلى الأرض فسطحت ، وعلى الملائكة فسجدت ، اللهم إن كنت قضيت حاجتي وأنجحت طلبتي وأجبت دعوتي فألحقني بإخوتي ، ثم صرخت صرخة فارقت الدنيا رحمة الله عليهن . قال الحارث : فتعجبت من أحوالهن وتقارب آجالهن . فللّه درّ أقوام أمروا فامتثلوا وعملوا فقبلوا وعلى مرادهم حصلوا ، طلبوا وصاله فبجبل حبه وصلهم ، ودعوا مولاهم فاستجاب لهم ؛ أخلصوا في خدمته قولاً وفعلاً وقضوا في طاعته فرضاً ونفلاً ، وطلبوا لقاءه فأحب لقاءهم ومنحهم قرباً ووصلاً وماتوا على دين حبه لما كانوا لذلك أهلاً :

تجلى لهم سرّاً فأفنى وجودهم ... ولم يبق من أجسادهم مفصلاً أصلا
وأضحوا نشاوى من مدامة حبه ... وأرواحهم تسمو إلى الملأ الأعلى
تفانوا على دين الغرام فأصبحوا ... بسيف الهوى في حب محبوبهم قتلى
سقاهم كؤوس الحب صرفاً وحبذا ... كؤوس بصافي الود من حبه تملا
وناداهم الليل قد مدّ ستره ... وأوردهم من فضله المورد الأحلى
وأشهدهم أنوار حسن جماله ... وبوأهم من قربه الفضل والوصلا
فهاموا به لما رأوه صبابة ... وقد عدموا في حبه الذهن والعقلا
وقال أبشروا ثم انظروا وتمتعوا ... فهذا جمالي قد بدا لكم يجلى
فيا معشر الأحباب يهنيكم اللقا ... فسعدكمو وافى وحزنكمو ولى
فيا رب بالهادي البشير محمد ... نبي زكا فرعاً كما قد زكا أصلا
ومن قد رقى نحو السماء مشرّفاً ... وفضلته حقاً وألهمته عدلا
أجرنا من النيران واغفر ذنوبنا ... فنحن أتينا منك نستمطر الفضلا
عليه سلام الله ما سرت الصبا ... وما لاح نور من محاسنه يجلى

المجلس الرابع

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الذي اختار من عباده من صح للعبادة وانتقى ، وجعلهم خداماً وقسمهم أقساماً وفرقاً ، خصهم بعنايته ونظر إليهم ورعاهم برعايته ، وأخذ عليهم عهداً وموثقاً ، صافاهم فاصطفاهم وناداهم فأدناهم ؛ وحياهم بالوصل واللقا . رفعهم من حضيض نفوسهم إلى حضرة أنيسهم وسقاهم بكأس تسبيحهم وتقديسهم شراباً قديماً مروقاً ، فطاب كل منهم لنشوة شرابه وسكر عند سماع خطابه ، وسما إلى حضرة أحبابه وارتقى ، وتجلى لهم على طور السحر فتملى المحب وفاز بالنظر وخر كليم الوجد منهم صعفاً ، أفناهم عن الوجود فجادوا بالموجود ولم يتركوا رمقاً ؛ أودعهم سرائر محبته فخافوا من غيرته فجعلوا عليهم باباً مغلفاً ، ففاح أرجها إلى مشام القلوب ، فاستنشقت من جانب المحبوب نشراً عبقاً ، وسرى سرها الخفي وأرجها الزكي إلى سر سرّي السقطي ، فسار على الآثار مستبقاً ، وإلى الشبلي فبات لعرائس المحبة يستجلي ، وإلى أبي يزيد فطلب المزيد وازداد حرقاً ، وإلى الجنيد فأضحى في قيد المحبة موثقاً ، وإلى الفضيل فشمر في خدمته الذيل وسار مذ وافى الليل على خيل التوفيق بعد قطع الطريق مرفقاً ، وإلى الخواص فغاص في بحار الإخلاص وأضحى من جواهر الخواص منتقى ، وإلى سمنون فظهر عليه من المحبة والوجد فنون ، فهام في الجبل كالمجنون ونادى بلسان أشواقه ودموع آماقه تتدفق تدفقاً :

أطعمتموني في الوصال وفي اللقا ... وهجرتموني فالتهبت تحرّقا
يا مالكي رقي وغاية مطلبي ... رفقاً فقد ذاب الفؤاد تشوقا
حاشاكمو أن تطردوني سادتي ... وبحبكم قلبي غدا متعلقا
يا سادتي لم يهن لي من بعدكم ... عيش ولا عاينت شيئاً مونقا
إن مت من وجدي وفرط صبابتي ... شوقاً إلى رؤياكم لكم البقا
يا نفس قد زال العنا فتمتعي ... بوصال من تهوى فقد زال الشقا
وجلا الحبيب جماله فلأجل ذا ... أصبحت من وجدي به متمزقا
هاكم فؤادي فتشوه فإن تروا ... فيه لغيركمو هوى وتشوّقا
فتحكموا فيه بما يرضيكمو ... يا منيتي إن خان يوماً موثقا
وإذا فنيت بحبكم فيحق لي ... إن الفناء بحبكم عين البقا

[**وقال عبد الرحمن بن المهذب رحمة الله عليه**] : مررت يوماً بسوق الرقيق فوجدت دلالاً ينادي على عبد ويقول أبيعه على عيبه . فقلت للدلال : ما العيب الذي فيه ؟ فقال : سله يا مولاي فدنوت من الغلام وقلت له : ما العيب الذي فيك ؟ فقال : يا سيدي عيوبي كثيرة فلا أدري بأيها أشهروني ، فقلت للدلال : أخبرني ما العيب الذي في هذا الغلام ؟ فقال : به داء الجنون ، فقلت للغلام : كيف يأتيك هذا الصرع ، أفي كل سنة أم في كل جمعة أم في كل شهر ؟ فقال : يا مولاي إذا استولى داء المحبة على القلب سرى في الأعضاء كلها ، وإذا استولى على الجوارح انتشر خمار المحبة في سائر الجسد فطاش العقل بذكر الحبيب وأحدث على القلب استغراقاً وعلى البدن سكوناً فيعتقده الجاهل جنوناً . قال عبد الله : فعلمت أن الغلام من أولياء الملك العلام ، فقلت للدلال : كم ثمن هذا الغلام ؟ فقال : مائتا درهم . قلت : ولك عشرون ، فوزنت له الثمن وأخذت الغلام وأتيت به إلى الدار ، وأمرته بالدخول ، فأبى وقال : يا سيدي ألك أهل ؟ قلت : نعم ، قال : ومن يستطيع أن ينظر إلى غير محرمه ؟ فقلت له : قد أبحت لك ذلك ، فقال : معاذ الله ، لكن مهما كان لك من حاجة قضيتها وأنا دون الباب فسكتّ عنه وتركته ، ثم أخرجت له طعاماً فقال : إني صائم ، فلما كان الليل أخرجت له عشاء فقال : إني طاو ، وقام عندي في دهليز الدار ، فخرجت إليه نصف الليل فوجدته قائماً يصلي ولم يشعر بي ، فلما فرغ من صلاته سجد وبكى بكاءً شديداً ، فسمعت من مناجاته : إلّهي أغلقت الملوك أبوابها وبابك مفتوح للسائلين . إلّهي غارت النجوم ونامت العيون وأنت الحي القيوم ، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، إلّهي فرشت الفرش وخلا كل حبيب بحبيبه وأنت حبيب المجتهدين يا أنيس المستوحشين . إلّهي إن طردتني عن بابك فإلى باب من ألتجي ، وإن قطعتني عن خدمتك فخدمة من أرتجي . إلّهي إن عذبتني فإني مستحق العذاب والنقم ، وإن عفوت عني فأنت أهل الجود والكرم ، ثم جلس ورفع يديه وبكى وقال : يا سيدي لك أخلص العارفون وبفضلك نجا الصالحون وبرحمتك أناب المقصرون ، يا جميل العفو أذقني برد عفوك وحلاوة مغفرتك وإن لم أكن أهلاً لذلك فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة ، فدخلت الدار ولم أشوّش عليه . فلما أصبح الصباح خرجت إليه فقلت له : كيف نمت البارحة ؟ فقال : يا سيدي أو ينام من يخاف النار والعرض على الملك الجبار والتوبيخ غدا على الذنوب والأوزار ؟ ثم بكى طويلاً فقلت : اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى ، فبكى وقال : يا سيدي كان لي أجران أجر العبودية وأجر الخدمة ، وقد ذهب عني أحدهما أعتقكَ الله من نار جهنم ، قال : ثم دفعت إليه نفقة فأبى قبولها ، ثم قال : إن المتكفل بالأرزاق حي لا يموت ، ثم خرج هائماً على وجهه لا أدري أين ذهب ، فواشوقاه إلى أرباب القلوب وواحزناه على فوات المطلوب .

يا محبوساً في سجن الغفلة لو أشرفت على وادي الرجاء لرأيت خيم قوم مضروبة على شاطىء بحر ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧] وسمعت أطيار أشجانهم على أغصان أحزانهم تترنم بأصوات : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨] لذّ لهم السهر ، وصفا وقتهم من الكدر ، وراق لهم وقت السحر ، وخلوا بالمحبوب ، ففازوا بالمشاهدة والنظر :

هذا المحب مع المحبوب قد حضرا ... وسامح الكل عما قد مضى وجرى
وقد أدار على العشاق خمرته ... صرفاً يكاد سناها يخطف البصرا
يا سعد كرر لنا تذكاره فلقد ... بلبلت أسماعنا يا مطلب الفقرا
وما لركب الحي مالت معاطفه ... لا شك أن حبيب القوم قد حضرا
غداً غداً تنظر الأعلام قد رفعت ... أمامهم علم للوصل قد نشرا
ومجلس الأنس بالمحبوب يجمعهم ... والكأس دائرة ما بينهم سحرا
ومن سقاهم تجلى لا شبيه له ... حاشاه يشبه لا شمساً ولا قمرا
منزه عن شريك في جلالته ... موحد في علاه ليس فيه مرا
فمن أتاه فقيراً لا مراد له ... سواه يكتبه من جملة الأمرا
هذا السماع الذي تشفي الصدور به ... هذا الحبيب الذي قد هيم الفكرا
صوفية عندما ضاقت صدورهم ... أزال عنهم جميع الشك والكدرا

[وقال محمد بن الفضيل] : رأيت شاباً راقداً على الأرض ، وقد افترش التراب وهو يئنّ أنيناً شديداً ، فقلت لصاحبي : اعدل بنا إليه فإنه عليل ، فقال : ما هذا عليل ، هذا في الباطن من المحبين ، وفي الظاهر من المجانين فقلبه بحب مولاه مفتون وهو يدعى بعبيد المجنون ، فتقربت إليه فإذا هو شاب نحيف الجسم وعليه جبة صوف بالية وهو يقول : عجباً لمن ذاق حلاوة محبتك كيف ينقطع عن خدمتك ، ثم لم يزل يردد ذلك القول حتى غشي عليه ، فقلت لصاحبي : والله ما المجنون إلا الذي لم يصل إلى هذا المقام ، فلما أفاق من غشيته قال : ما بالكم تنظرون إليّ ؟ قلنا : لعل دواء يشفي من الداء الذي تجده ؟ قال : إن الذي ابتلى بالداء عنده الدواء ، ولكن الذي يريد أن يتداوى يحتمي . قلت : بماذا ؟ قال : بترك الحرام وتجنب الآثام ، ومراقبة الملك العلام ، والتهجد بالليل والناس نيام ، ثم بكى بكاءً شديداً طويلاً وبكينا معه وقلنا له : نحن أضيافك ، فادع لنا . فقال : ما أنا من خيل هذا الميدان فأقسمنا عليه . فقال : تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال ، وجعل قراكم المغفرة ، وجعل مثواكم الجنة ، وجعل ذكر الموت مني ومنكم على بال ، ثم انصرفنا عنه ، وقد عجبنا

من حسن لفظه وعاشت قلوبنا بكلامه ووعظه . يا هذا هذه حالة المجانين من حب الحبيب فكيف حالك أيها العاقل اللبيب ؟ يدعوك مولاك فلا تجيب ويأمرك بالإنابة فلا تنيب ويستحضرك إلى حضرات قربه وأنت في المغيب ، إلى متى تضيع عمرك وما نلت من نصيب ؟ إلى متى أنت بعلة زلتك ولا ترفع قصة غصتك إلى طبيب ؟ ويحك بادر بالتوبة إلى بابه ، وعفر الخد على أعتابه فهو منك قريب ، واسأله الهداية والتوفيق ، واقصده في تفريج الهم والضيق ، فقاصده لا يخيب ، وتقرب إليه بما يرضيه واحذر من معاصيه ، فإنه حاضر لا يغيب ، وادعه حين تناجيه ، فإنه لداعيه مجيب ، وتب في هذه الساعة إليه وتضرع بين يديه بالبكاء والنحيب ، فعسى أن يجتبيك لطاعته ويهديك بهدايته فإن ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ : [الشورى : ١٣] [كان وكان] :

تعصي وتغلق بابك ... كيلا يرونك تفضح ... نسيت أني حاضر ... ولي عليك رقيب
تزعم بأنك عاقل ... وأنت من أهل الذكا ... وبعت حضره بنظره ... ما ذلك فعل لبيب
عمرك مضى وتقضى ... بقي القليل وترتحل ... فجدّ إن كان رأيك ... في الحزم رأي مصيب
فانهض وهيىء زادك ... تنل مرادك والمنى ... وراع غصن شبابك ... ما دام غصن رطيب
وقف بباب المولى ... وادعوه في وقت السحر ... فالوقت رائق لائق ... والرب منك قريب
مولى تجافيه يحنو ... وإن نسيته يذكرك ... وإن دعاك تولى ... وإن دعوت يجيب
فاضرع إليه ونادي ... بذلة يا سيدي ... يا من عليه اتكالي ... ومن إليه أنيب
أنا المقر بذنبي ... وأنا المسيء لشقوتي ... حاشا رجائي وظني ... يا رب فيك يخيب
وليس لي من شفيع ... إلا النبي المصطفى ... ومن لدنك اصطفيته ... دون الأنام حبيب
صلى عليه وسلم ... رب السموات العلى ... ما سار سائر إليه ... بناقة ونجيب

[قال الجنيد رحمة الله عليه] : جلست يوماً بين أصحابي نتذاكر عباد الله الصالحين ، فقال السري : كنت يوماً جالساً في بيت المقدس عند الصخرة ، وكانت أيام العشر وأنا متحسر على التخلف عن الحج في تلك السنة . فقلت في نفسي : إن الناس قد توجهوا إلى مكة ولم يبق إلا أيام قلائل وأنا ههنا مقيم فبكيت على فوات نصيبي وتخلفي ، فسمعت هاتفاً يقول : يا سري لا تبك فإن الله تعالى يقيض لك من يوصلك إلى الحج . فقلت : وكيف يكون ذلك وقد بقي أيام يسيرة وأنا ببيت المقدس ؟ فقال : لا تحزن إن الملك القدير يهون عليك العسير ، فسجدت شكراً لله تعالى وجلست أنتظر صدق الهاتف ، وإذا بأربعة شباب قد دخلوا من باب المسجد كأن الشمس تطلع من وجوههم والنور يلمع من جباههم يقدمهم شاب عليه هيبة وجلالة وهم خلفه وعليهم لبس الشعر ، وفي أرجلهم نعال الخوص ، فدنوا من الصخرة ودعوا الله تعالى ،

فامتلأ المسجد من أنوارهم فقمت معهم وقلت : يا رب ! لعل هؤلاء الذين رحمتني بهم ورزقتني صحبتهم ، فدخلوا القبة والشاب أمامهم وهم خلفه ، فصلى كل واحد منهم ركعتين والشاب قائم يناجي ربه ، فدنوت منه لأسمع مناجاته فبكى ، ثم كبر وصلى صلاة سلبت فؤادي ولبي ، فلما فرغ جلس وجلس الثلاثة بين يديه فدنوت منهم . وقلت : السلام عليكم ، فقال الشاب : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، يا سري يا صاحب الهاتف الذي هتف بك اليوم وبشرك بأن لا يفوتك الحج في هذه السنة ، فكدت أن أصعق وامتلأ قلبي فرحاً وسروراً . فقلت : نعم يا سيدي هتف بي هاتف قبل ورودكم بساعة . فقال : نعم يا سري كنا قبل أن يهتف بك الهاتف بساعة في بلاد خراسان قاصدين بغداد ، فقضينا حوائجنا وعزمنا على القصد إلى بيت الله الحرام . فأحببنا زيارة قبور الأنبياء بالشام ثم نقصد مكة شرفها الله تعالى وقد قضينا حقوقهم وزرناهم وأتينا إلى ههنا نزور البيت المقدس ، فقلت له : يا سيدي وما كنتم تصنعون بخراسان ؟ فقال : لأجل الاجتماع بإبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخي إخواننا في الله عز وجل فجئنا إلى بغداد نقصد البيت الحرام ، فجئت أنا إلى بيت المقدس لأجل الزيارة وذهبا هما من طريق البادية . فقلت : يرحمك الله من خراسان إلى بيت المقدس مسيرة سنة ، فقال : ولو كانت الطريق ألف سنة ، العبيد عبيده ، والأرض أرضه ، والسماء سماؤه ، والزيارة لبيته والقصد إليه ، والإبلاغ عليه ، والقوة والقدرة له . أما ترى الشمس كيف تسير من المشرق إلى المغرب في يوم واحد ؟ أهي تسير بقوتها أم بقوة القادر وإرادته . فإذا كانت الشمس وهي جماد لا حساب عليها ولا عقاب تقطع من المشرق إلى المغرب في يوم واحد ، فليس بعجيب أن يبلغ عبد من عبيده من خراسان إلى بيت المقدس في ساعة واحدة ، فإن الله تعالى له القوة والقدرة وخرق العوائد لمن يحب ويختار . يا سريّ عليك بعز الدنيا والآخرة ، وإياك أن تصل إلى ذل الدنيا والآخرة ، فقلت : يرحمك الله أرشدني إلى عز الدنيا والآخرة ؟ فقال : من أراد غنى بلا مال ، وعلماً بلا تعلم ، وعزاً بلا عشيرة ، فليخرج حب الدنيا من قلبه ولا يركن إليها ولا يطمئن بها ، فإن صفوها ممزوج بكدرها ، وحلوها منغص بمرها . فقلت له : يا سيدي بالذي خصك بأنواره ، وأطلعك على أسراره أين تقصد ؟ قال : الحج إلى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر سيد الأنام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، فقلت : والله لا أفارقك فإن فراقك أشد من فراق الروح للجسد . فقال : بسم الله ، فخرجت معهم من البيت المقدس إلى البادية ولم نزل نسير حتى قال : يا سري هذا وقت الظهر أما نصلي ؟ فقلت : بلى ، فعزمت على التيمم بالتراب . فقال : إن ههنا عين ماء ، فعدل عن الطريق وإذا بعين ماء أحلى من الشهد فتوضأت وشربت فقلت : والله لقد سلكت هذا الطريق مراراً

ولم يكن ههنا عين ماء . فقال : الحمد لله على لطفه بعباده فصلينا الظهر ، ثم سرنا إلى وقت العصر فبانت أعلام الحجاز ولاحت لنا حيطانها . فقلت : هذه أرض الحجاز ، فقال لي : قد وصلت إلى مكة فأخذني البكاء والنحيب ، ثم قال : يا سري تدخل معنا ؟ قلت : نعم فدخلنا من باب الندوة فرأيت رجلين أحدهما كهل والآخر شاب . فلما نظراه تبسما وقاما فعانقاه وقالا : الحمد لله على السلامة . فقلت : يرحمك الله من هؤلاء ؟ قال : أما الكهل فإبراهيم بن أدهم ، وأما الشاب فمعروف الكرخي ، فصلينا صلاة المغرب والعشاء ثم قام كل منهم إلى الصلاة . فقمت أنا ووافقتهم بحسب طاقتي فغلبني النوم في السجود . فلما انتبهت لم أر أحداً منهم فبقيت كالمجنون الهائم ، وطفت عليهم في المسجد وفي مكة وفي منى فلم أجدهم ، فرجعت باكياً حزيناً لتخلفي عنهم ، وفوت نصيبي عنهم :

سريتم ولم لا تصحبوني في الركب ... فيا جفن لا تبخل عن الصب بالصب
وأعلم حقاً أن بعدي عنكم ... لذنب جرى لكنني تبت من ذنبي
وحرمة ركب أحرموا وتوجهوا ... لمحبوبهم أكرم بذلك من ركب
يحنون نحو الشعب شوقاً وما لهم ... مراد ولا قصد سوى ساكن الشعب
وما زال حادي الشوق يحدو قلوبهم ... ويسري بهم إذ أوصلوا الحب بالحب
وقد ذللوا تلك الوجوه لعزه ... وقد عفروا تلك الوجوه على الترب
ورب الصفا والطائفين ببيته ... يلوذون بالأستار منه وبالحجب
لقد أوحشوا الصب المشوق ببعدهم ... ولكنهم بالذكر قد آنسوا قلبي

[إخواني] اسمعوا صفات هؤلاء الأقوام كتموا الغرام ، ولزموا الهيام ، وأفشوا السلام ، وبذلوا الطعام ، وأداموا الصيام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، وجانبوا الآثام ، وانفردوا عن الأنام ، وخلوا لمناجاة الملك العلام أطاعوه في الخلوات ، فمحا عنهم السيئات ، ورفع لهم الدرجات . ركبوا بحر الندامة ، وأقلعوا بريح الملامة ، فوصلوا إلى بر السلامة . طهر قلوبهم وستر عيوبهم وغفر ذنوبهم ، وبلغهم مطلوبهم . عرفوه فألفوه ، ورأوه أهلاً للعبادة فعبدوه ، ووجدوا الربح في معاملته فعاملوه ، وعلى الصدق والوفاء بايعوه ، فهم في حكم قبضة التدبير حيارى ما بين قتيل وأسير ، قد أسبلوا العبرات على الوجنات وواصلوا الزفرات بالحسرات ونادوا : يا من لا تحيط به الجهات ولا تختلف عليه الأصوات أنقذنا من ظلم الآفات إلى نور إدراك الصفات . يا من يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات :

قوم بمحبوبهم في دهرهم شغلوا ... وفي محبته أرواحهم بذلوا

وخرّبوا كل ما يفنى وقد عمروا ... ما كان يبقى فيا حسن الذي عملوا
لا زينة الأرض تلهيهم وتعجبهم ... ولا جناها ولا حلى ولا حلل
تاهوا عن الكون من وجد ومن طرب ... وما استقل بهم ربع ولا طلل
داعي التشوق ناداهم فأقلقهم ... فكيف يهدوا ونار الشوق تشتعل
وشقة البيد تطوي في السرى لهمو ... وكل قاص دنا حتى به اتصلوا
وافت لهم خلع التشريف يحملها ... عرف النسيم الذي من نشره ثملوا
هم الأحبة أدناهم لأنهم ... عن خدمة الصمد القيوم ما غفلوا

[جاء في الحديث عن النبي ﷺ] أنه قال : « الشاب التائب حبيب الله » فهذه المحبة من الله تعالى للعبد إذا كان شاباً تائباً إن الشاب مثل الغصن الرطب ، فإذا تاب وقت شيبوبته وتنعمه بالشهوات واللذات والرغبة فيه من كل الجهات وهو وقت إقبال الدنيا عليه وترك جميع ذلك طلباً لرضا الله تعالى استحق المحبة ، وكان من الأولياء المقبولين عنده . وقيل : إن الشاب إذا تاب ورجع إلى الله تعالى أوقد له بين السماء والأرض سبعون قنديلاً ، واصطفت الملائكة يضجون بالتسبيح والتقديس فإذا سمع إبليس اللعين بذلك قال : ما الخبر ؟ فينادي مناد من السماء : إن العبد قد اصطلح مع مولاه فيذوب اللعين كما يذوب الملح في الماء :

هذا أوان الصلح ما أقعدك ... عن باب من بالخير قد عوّدك
فإن محوت اليوم ما سطرت ... أيدي خطاياك فما أسعدك

[وقيل] : إذا طلعت صحيفة العبد مملوءة بالسيئات يقول الله عز وجل للملائكة : ما في صحيفة عبدي وهو أعلم ، فيقولون : إلٰهنا إنها لا تصلح للعرض عليك ، فيقول الله تبارك وتعالى : إذا كانت لا تصلح للعرض عليّ فرحمتي تصلح له ، أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت له وتبت عليه وأنا التواب الرحيم :

ما زلت أعرف بالإساءة دائماً ... ويكون منك العفو والغفران
لم تنتقصني إن أسأت وزدتني ... حتى كأنّ إساءتي إحسان
تولي الجميل على القبيح تكرماً ... أنت الإلٰه المنعم المنان
ما لي إليك وسيلة يا سيدي ... إلا الذي شرفت به عدنان
المصطفى المختار أكرم شافع ... في الخلق حين تسعر النيران
لم لا وآدم عمه لما استجا ... ر بجاهه من ربه الإحسان

وكـذاك إدريـس الـنبي بجاهـه هـيء لـه فـوق السـماء مكـان وكذاك نوح في السفين دعا بـه
فنجـا وعمـم قومـه الطوفـان وغدت لإبراهيم روضاً مزهـرا لمـا حللـت بصـلبه الـنيران
وإلى الذبيح نقلت يا خير الـورى ففداه من كأس الردى الـرحمن وأبـوك عبـد الله مـن ذبـح نجـا
وأزيـل عنـه بجاهـك الأحـزان يا سيد الكونين يا علـم الهـدى يـا مـن بـه تتشـرف الأكـوان

صـلى عليـك الله جـل جلالـه ما اهتز في روض الحمى الأغصـان

المجلس الخامس

في فضل شهر رمضان وصيامه

الحمد لله المتوحد بجلال البهاء ، المنفرد بدوام القباء ، المتعالي عن الزوال والفناء ، المقـدس عن الآباء والأبناء المتردي برداء العظمة والكبرياء ، العليم بجميع الأشـياء ، الـذي جـل عـن الابتداء والانتهاء ، السميع الذي لا تشتبه عليه الأصوات المختلفة في الدعاء ، البصـير الـذي يبصر دبيب النمل على الرمل في الليلة الظلماء ، العليم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، الحليم الذي يسبل على من عصاه جميل الستر والغطاء ، المـنعم علـى من اتقاه بجزيل النعم والعطاء ، الحكيم الذي رفع السماء بغير عمـد في جـو الهـواء ، وبسـط بساط الأرض بحكمته على تيار الماء ، الذي تعالى عن الأضداد والأنداد والقرناء ، وجل عـن الصاحبة والأولاد والشـركاء ، المطلـع الـذي لا يسـتتر عنـه سـر الضـمير في جميـع الأوقـات والآناء ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء :

جـل ربّ أحـاط بالأشـياء واجـد ماجـد بغـير خفـاء جـل عـن مشـبه لـه ونظـير
وتعـالى حقـاً عـن القرنـاء عالم السر كاشـف الضـر يعفـو عن قبيح الأفعـال يـوم الجـزاء
مـا علـى بابـه حجـاب ولكـن هـو مـن خلقـه سميـع الـدعاء لـذ بـه أيهـا الغفـول وبـادر
تحـظ مـن فضـله بنيـل العطـاء

فسبحان من قدّر الأزمان ، وفصل الفصول ، وأغرق في بحر معرفتـه الأفكـار والعقـول ، وحير في كنه ذاته والأفهام ، فما لها إلى معرفة صمديته وصول ، وخص شهر رمضـان بـالعفو والغفران والبشر والرضوان والسرور والقبول ، ووعد من صامه ببلـوغ المقصـود والمـأمول ، فطوبى لمن تلقاه بالعمل الصالح ، وطهر فيه الجوارح من الشك والغلول ، فانتبـه أيهـا الغافـل من سنة الغفلة ، وبادر وفي الوقت مهلة قبل مسير القفول :

قد مضى العمر فبادر يا غفول واذكر الرب الذي ليس يزول وضع الخد على باب الرجا
وابك في الليل بدمع كالسيول واجتهد في صوم ذا الشهر عسى تلتقي فيه من الله القبول

واتبع خير سبيل واقتدي بالنبي المصطفى الهادي الرسول
فعليه الله صلى كلما سارت النوق إليه بالحمول

فسبحان من اختصاص أقواماً بخدمته وشغلهم بمحبته ، فما لهم بغيره اشتغال ، صاموا على الشهوات فمحا عنهم السيئات ، وبلغهم المقاصد والآمال ، أعانهم على الصيام فصاموا وأقامهم في الظلام فقاموا إلى خدمته في الليال الطوال ، سمعوا في صحيح السنة أن الصوم جنة فحموا نفوسهم من قبيح الفعل والمقال فيا سعادة من قبلت منه في شهره الأعمال ، ويا شقاوة من فرّط في صيامه بالإهمال ، ولم يحظ في شهره بفطره على شيء من الحلال ، ولم يزل منكباً عن الطريق مكباً على الطريق ما لا يليق من قبيح الخلال ، اسمع يا من هذه صفاته وقد قربت وفاته وهو لاعب بطال [كان وكان] :

أيا من عمره طال إلى كم أنت بطال جميع الدهر نقال على ظهرك أثقال
تبارز بالمعاصي وعنا أنت قاصي وتدعو بالخلاص وما عندك إقبال
إلى الغيبة ترتاح وما عندك إصلاح وما يرضيك يا صاح سوى قيل وقال
تمد الطوف في الصوم ولا تخشى من اللوم ليكتب منك في اليوم وفي الليلة أفعال
فتب ذا الشهر كي تحظى وكمل صومه فرضا لعلّ الله أن يرضى ويصلح منك أحوال

فسبحان من افترض صوم شهر رمضان على أمة الإسلام وحباهم بالفضل والإحسان ، وخصهم فيه بالعتق من النيران قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ : [البقرة : ١٨٣] فجعله صحة للأبدان ، ومطهرة للقلب واللسان ، من الذنوب والعصيان ، وأنزل فيه على سيد البشر ترخيصاً في الصوم لمن أصابه مرض أو ضرر ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ : [البقرة : ١٨٤] .

فسبحان اللطيف المنان ، الذي منّ على هذه الأمة بتمام إحسانه ، وجاد عليها بفضله الوافر وامتنانه ، وجعل شهرها مخصوصاً بعفوه وغفرانه ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾[البقرة : ١٨٥] .

قد جاء شهر الصوم فيه الأمان والعتق والفوز بسكنى الجنان شهر شريف فيه نيل المنى
وهو طراز فوق كم الزمان طوبى لمن صامه واتقى مولاه في الفعل ونطق اللسان

ويـــا هنـــا مـــن قـــام في ليلـــه ودمعـــه في الخـــد يحكـــي الجمـــان
ذاك الـــذي قـــد خصـــه ربـــه بجنـــة الخلـــد وحـــور الحســـان

أحمده على صنوف الإنعام والإحسان ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له شهادة خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله سيد الأكوان صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته والتابعين لهم بإحسان . قال الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ : سمي الشهر شهراً لشهرته يقال : فلان سيفه : إذا أخرجه من غمده وأظهره ، وسمي رمضان لأنه يرمض الذنوب : أي يمحوها . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ يعني أنزل في فرض صومه القرآن ، وقيل : أنزل فيه القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا إلى بيت العزة في ليلة القدر من شهر رمضان ، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ نجوماً بحسب الوقائع قاله ابن عباس وابن شهاب رضي الله عنهما . وقال رسول ﷺ : « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين » رواه البخاري ومسلم . وروى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان فتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب ، ونادى مناد : يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ، والله تعالى عتقاء من النار في كل ليلة من رمضان » وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » ، وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » . وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم جل جلاله يقول حسنة يعملها ابن آدم تضاعف له من عشرة إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي ، والصوم جنة من النار ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل أنا صائم » رواه الترمذي ، وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه » ، وقد جاء في الصحيحين : « إن الغيبة تفطر الصائم » ، وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه » رواه البخاري ومسلم :

وقد صمت عن اللذات دهري كلها ويـــوم لقـــاكم ذاك فطـــر صـــيامي

[إخواني] هذا شهر رمضان شهر الصفاء والمعاملة والوفاء ؛ فطوبى لأقوام صاموا عن

الشهوات ، و قاموا في الخلوات يتلون من آيات ذكره صحفاً ، ضاعف لهم بصيامهم أجوراً ووعدهم في الجنة قصوراً وغرفاً ، وقبل اليسير من أعمالهم وتجاوز عن قبيح أفعالهم وعفا ، ويا خيبة الغافلين قد حرموا الوصل وخصوا بالقطيعة والجفا :

يا ناقضين العهد كم هذا الجفا تربوا فقد وافاكمو شهر الصفا شهر الرضا والعفو عن زلاتكم
والله فيه عن الجرائم قد عفا شهر على الأيام فضل قدره وعلا على كل الشهور مشرفا

أحيوا لياليه المنيرة كلها أجروا لفرقته الدموع تأسفا
فعسى الإله يجود فيه بفضله فهو الذي يهب الذنوب تلطفا

[**وعن ابن عباس رضي الله عنهما**] قال : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبي ﷺ القرآن فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة » أخرجه البخاري ، وعن أبي هريرة قال : « كان النبي ﷺ يبشر الصحابة ويقول قد جاءكم شهر مبارك فرض الله عليكم صيامه وسن لكم قيامه ، إذا جاء شهر رمضان تفتح فيه أبواب الجنان ، وتغلق فيه أبواب النيران ، وتغل فيه الشياطين ، وفيه ليلة خير من ألف شهر » .

[**إخواني**] هذه بشارة للمؤمنين في الجنات على الصبر عن الشهوات بالصيام والصبر على الطاعات ، فمن صبر نال أجراً ومن شكر وجد بعد العسر يسراً ، ومن تصدق نال فضلاً وبراً ومن أحسن إلى العباد أعد للمعاد ذخراً ، ومن أخلص لله في صيامه وقيامه كفّر عنه ذنباً ووزراً ، ومن ذكره في نفسه جدد له بين ملائكة قدسه ذكراً ؛ ومن لزم التقوى نال الفوز والبشرى ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ : [الطلاق : ٤] .

أيا معشر الصوّام وافتكم البشرى وقد نشر الباري بمدحكمو ذكرا
خصصتم بشهر فيه عتق ورحمة وقد أجزل الرحمن للصائم الأجرا

مساجده مأنوسة بتلاوة وذكر وكانت قبله تشتكي الهجرا ولله في العشر الأواخر ليلة
لقد عظمت قدراً كما ملئت خيرا فطوبى لقوم أدركوها وشاهدوا تنزل أملاك السما آية كبرى

وفازوا بغفران الإله فأصبحوا يشم عليه من شذا عرفها عطرا

يا هذا اغتنم زمان الأرياح فأيام المواسم معدودة ، استدرك ما بقي من ليالي الصوم فساعاته مشهودة ، جد في طلب الغنائم فأعمال الصائم منقودة ، وقد قيل : « إن الصائم نومه عبادة ونفسه تسبيح ودعاؤه مستجاب وعمله مضاعف » وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وقد منع نفسه الشهوات وترك اللذات ، فآثر نصيب مولاه على نصيبه من الملاذ والشبهات ، وأطاع

أمر معبوده وتلذذ بركوعه وسجوده كما قيل : « إن العبد إذا نام في سجوده يباهي الله عز وجل به الملائكة فيقول سبحانه : يا ملائكتي انظروا إلى عبدي ورحه عندي وجسده بين يديّ أشهدكم أني قد غفرت له » . ما أحسن سجود الساجدين ، وما أعز أنفاس الصائمين ، وما أنفع مناجاة القائمين ، وما أربح بضائع العابدين ، وما أطيب منادمة المحبين ، وما أنفع جوع أكباد الصائمين ، كما قيل : « إن العبد إذا كان نائماً وهو جيعان هرب منه الشيطان » فكيف إذا كان مستيقظاً ؟ فإذا كان مستيقظاً وهو شبعان جرى منه الشيطان مجرى الدم ، فكيف إذا كان نائماً ، فانظر يا هذا بركة الجوع ونفعه على الإنسان كيف يفرّ منه الشيطان .

[**حكى**] أن بعض الصالحين كان يمشي إلى المسجد فرأى رجلاً يصلي في المسجد ورجلاً نائماً على باب المسجد والشيطان قائم يتحير ويلتهب ، فقال له الرجل الصالح : ما لي أراك حائراً ؟ فقال : في هذا المسجد رجل قائم يصلي كلما هممت أن أدخل إليه أغويه وأشغله عن صلاته تمنعني أنفاس هذا النائم الذي على باب المسجد . فللّه درّ أنفاس الصائمين كيف تحرس القلوب والأجساد من كيد الشيطان فلا يصل إليها ولا يقدم عليها ، فسبحان من وفق الأحباب للهداية والصواب :

أنت وفقت من إليك أنابا أنت أصلحت من أصاب الصوابا أنت حببت ما تحب إليهم
ثم أعطيتهم عليه ثوابا أنت عرفتهم كنوز المعالي فغدوا يبحثون عنها طلابا

[**وقيل**] : إن الله عز وجل خص شهر رمضان بخصائص كثيرة : منها أن جعله شهراً عظيماً مباركاً وفيه ليلة خير من ألف شهر . جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعاً ، من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة . ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر المواساة وشهر يزاد فيه من رزق المؤمن . من فطر فيه صائماً كان كمن أعتق رقبة ، ومن أشبع فيه صائماً وسقاه شربة ماء سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم شربة لا يظمأ بعدها أبداً ويعطي الله عز وجل هذا الثواب لمن فطر صائماً على مذقة لبن أو شربة ماء أو تمرة ، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار ، فاستكثروا فيه من أربع خصال : خصلتان ترضون بهما ربكم ، وخصلتان لا غنى لكم عنهما . فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إلّه إلا الله وتستغفرونه في جميع الأحيان ، أما الخصلتان اللتان لا غنى لكم عنهما فتسألون الله الجنة وتتعوذون به من النار .

[**إخواني**] آه على من كانت النار مثواه . آه على من عصى مولاه . آه على من باع آخرته

بدنياه . آه على من كان التعذيب عقباه . آه على من استهواه غيه فاستعبده هواه . آه على المطرود في هذا الشهر ثم أوّاه :

آه على المذنبين أوّاه آه على من جفاه مولاه آه على من عصا بغفلته
جهراً وما تاب من خطاياه آه على المذنب الحزين إذا لم يخف الله ثم يخشاه

آه على من يفوته أسفاً في مثل هذا الشهر عفو مولاه
آه على من يبيع مغتبناً بدار دنياه دار أخراه

[كان وكان] :

سبحان من تصدّق عليكمو بصيامكم وخصكم بالعطايا يا أمة المختار
تأتون يوم القيامة وصومكم من فوقكم حيث اتجهتم توجه وحيث سرتم سار
محمول فوق الغمائم على يد الملائكة شعاعه يتلألأ من كثرة الأنوار
وتقدمون الموقف تجلوا على كل الأمم مثل الشموس وفيكم من يشبه الأقمار
وقد صفا الوقت لما ناداكمو مولاكم قوموا تعالوا تملوا بالوصل يا زوار
هذا جمالي تبدى والحجب عنكم رفعت ونورنا قد تجلى وزالت الأكدار

[**إخواني**] أين من صام من الحرام وأفطر على الحلال ؟ أين من منع لسانه من الغيبة والنميمة وكفه عن القيل والقال ؟ أين من غض بصره عن الشهوات واتبع حسن الحلال ؟ أين من أخلص صيامه وقيامه لمولاه ذي الجلال ؟ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقول : إذا دخل أول ليلة من شهر رمضان : مرحباً بشهر كله صيام نهاره وقيام ليله ، النفقة فيه كالنفقة في سبيل الله تعالى . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : يخرج الصائمون من قبورهم يوم القيامة يعرفون بريح صيامهم يخرج من أفواههم أطيب من ريح المسك تنقل إليهم الموائد والأباريق مختومة أفواهها بالمسك فيقال لهم : كلوا فقد جعتم حين شبع الناس ، واشربوا فقد عطشتم حين روى الناس ، واستريحوا فقد تعبتم حين استراح الناس . قال : فيأكلون ويشربون ويستريحون والناس مشغولون في الحساب في عناء وظمأ .

[**إخواني**] هذه بشارة للصوام في شهر رمضان ، إذا حموا نفوسهم من الزلل والعصيان ، وأخلصوا صيامهم للواحد المنان ، فكيف حال المفرّط الذي يصوم ويأكل لحوم الإخوان ، ويصلي وجسمه في مكان وقلبه في مكان ، ويذكر الله بلسانه وقلبه مشغول بذكر فلان وفلان ؟ فيا من أصبح إلى ما يضره متقدماً ، وأمسى بناء أمله بكف أجله متهدماً ، ستعلم من يأتي غداً

متندماً ، ويبكي على تفريطه في شهر بدل الدموع دماً . أتراك أيها الصائم أعددت عدة حازم لقبرك ؟ أم حصلت عملاً ينجيك في حشرك ؟ أم حفظْت حدود صومك في شهرك ؟ أم هتكت حرمة الحمى ؟ كم من صوم فسد فلم يسقط به الفرض ؟ وكم من صائم يفضحه الحساب يوم العرض ؟ وكم من عاص في هذا الشهر تستغيث منه الأرض ؟ وتشكو من أعماله السماء . فيا ليت شعري من المقبول ومن المطرود ؟ ومن المقرّب ومن المبعد المردود ؟ ومن الشقي ومن المسعود ، لقد عاد الأمر مبهماً ، تاللّه لقد سعد في هذا الشهر بحراسة أيامه ، من كف جوارحه عن كسب آثامه ، ولقد خاب من لم ينله من صيامه إلا الجوع والظمأ :

شهر الصيام لقد علوت مكرّماً ... وغدوت من بين الشهور معظما
يا صائمي رمضان هذا شهركم ... فيه أبا حكم المهيمن مغنما
يا فوز من فيه أطاع إلّه ... متقرّباً متجنباً ما حرما
فالويل كل الويل للعاصي الذي ... في شهره أكل الحرام وأجرما

فللّه درّ أقوام وفقهم مولاهم للصيام فصاموا ، وأعانهم على القيام ليلاً ، طويلاً أظمؤوا لأجله الأكباد ، فأراحهم من جميع الأنكاد ، وكان لهم ببلوغ المراد كفيلاً ، شغلهم به عمن سواه ، والسعيد من بات بخدمته مشغولاً ، ولذذهم بطيب المناجاة فنالوا فضلاً جزيلاً . يا من يحزنون لمفارقة شهر الصيام . ويتأسفون على انقضاء ليالي التهجد والقيام ؛ لأنه موسم يلقون فيه رحمة وقبولاً :

شهر الصيام لقد كرمت نزيلا ... وشفيت من كل القلوب عليلا ... شهر الأمانة والصيانة والتقى
والفوز فيه لمن أراد قبولا ... فيه الجنان تفتحت لقدومه ... والحور فيه تزينت تحفيلا
طوبى لعبد صح فيه صيامه ... ودعا المهيمن بكرة وأصيلا ... وبليله قد قام يختم ورده
متبتلاً لإلّه تبتيلا ... شهر يفوق على الشهور بليلة ... من ألف شهر فضلت تفضيلا

فاجهد عساك تنالها فيما بقي ... بالجد واحذر أن تكون غفولا

[**إخواني**] كيف لا يرغب في صيام شهر رمضان وقيامه ؟ كيف لا يتأسف على شهر تكفر في جميع ذنوب العبد وآثامه ؟ كيف لا يبكى في شهر يفوت فيه ربح العامل وفرصة اغتنامه ؟ فقد قيل : « إن لله تعالى موضعاً حول العرش يسمى حظيرة القدس ؛ وهو من النور وفيه ملائكة لا يعلم عددهم إلى الله عز وجل يعبدون الله عز وجل عبادة لا يفترون ساعة فإذا كان ليالي رمضان استأذنوا ربهم عز وجل أن ينزلوا إلى الأرض ويحضروا مع أمه محمد ﷺ صلاة التراويح فكل من مسهم أو مسوه سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً » . فلما سمع ذلك عمر بن الخطاب

رضي الله تعالى عنه قال : نحن أحق بهذا الفضل والأجر فجمع الناس على صلاة التراويح في شهر رمضان :

فطوبى لمن أرضى الإلـه مسارعاً ... إلى سبل تهديه للرحلة الأخرى
وقام وصلى في الدياجي ودمعه ... على خده يجري بمقلته العبرا
وأخلص لله العظيم قيامه ... وعاهده سراً وراقبه جهرا
وصافحه حقاً ملائكة السما ... فنال بهذا في الورى العز والفخرا
وأحيا ليالي شهره بقيامه ... إلى ربه في الليل وامتثل الأمرا
فذاك بحد الله في طيب عيشة ... يفوز بها صوماً ويحظى بها فطرا

وقال محمد بن أبي الفرج : احتجت في شهر رمضان إلى جارية تصنع لنا الطعام فوجدت في السوق جارية ينادى عليها بثمن يسير وهي مصفرة اللون نحيفة الجسم يابسة الجلد فاشتريتها رحمة لها وأتيت بها إلى المنزل ، فقلت لها : خذي أوعية وامضي معي إلى السوق لنشتري حوائج رمضان ، فقالت : يا سيدي أنا كنت عند قوم كل زمانهم رمضان فعلمت أنها من الصالحات فكانت تقوم الليل كله في شهر رمضان . فلما كانت آخر ليلة قلت لها : امضي بنا إلى السوق لنشتري حوائج العيد ؟ فقالت : يا مولاي أي حوائج العيد ؟ حوائج العوام أم حوائج الخواص ؟ فقلت لها : صفي لي حوائج العوام وحوائج الخواص ! فقالت : يا سيدي ! حوائج العوام الطعام المعهود في العيد ، وحوائج الخواص الاعتزال عن الخلق والتفريد والتفرغ للخدمة والتجريد والتقرب بالطاعات للملك المجيد والتزام ذل العبيد . فقلت لها : إنما أريد حوائج الطعام . فقالت يا سيدي ! أي الطعام تعني ؟ طعام الأجساد أم طعام القلوب ؟ فقلت لها : صفيهما لي فقالت : أما طعام الأجساد فهو القوت المعتاد ، وأما طعام القلوب فترك الذنوب وإصلاح العيوب والتمتع بمشاهدة المحبوب والرضا بحصول المقصود والمطلوب ، وحوائجه الخشوع والتقوى وترك الكبر والدعوى والرجوع إلى المولى والتوكل عليه في السرّ والنجوى . ثم إنها قامت تصلي فقرأت في الركعة الأولى سورة البقرة إلى آخرها ثم شرعت في سورة آل عمران ، ثم لم تزل تختم سورة بعد سورة حتى وصلت إلى سورة إبراهيم إلى قوله تعالى : ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم : ١٧] ثم لم تزل تردد هذه الآية وهي تبكي إلى أن أغمي عليها ووقعت على الأرض فحركتها فإذا هي ميتة رحمة الله عليها . فللّه درّهم من أقوام غسلوا وجوههم بدموع الأحزان ، وأسهروا عيونهم في الليل بالذكر وتلاوة القرآن ، ونصبوا أقدامهم في خدمة الملك الديان ، واجتهدوا في العمل وبادروا الزمان فكل زمانهم رمضان :

طوبى لهم فازوا بذكر حبيبهم وتمتعوا بدنوّه ووصاله فهوا هو لا ينقضي وغرامهم
وكذا محبة كل صب واله ذلوا لعز حبيبهم واسهونوا ما كابدوا في الحب من أهواله

وبه قد اشتغلوا ويا بشرى لمن قد أصبح المحبوب من أشغاله

[إخواني] ما أحسن من خلع عليه مولاه خلع القبول . وما أنعم بال من بلغه غاية المقصود والمسؤول ، وما أشقى من رد عليه صيامه وأحصى عليه قبيحه وآثامه . ومضت في البطالة شهوره وأعوامه وآثر شهوة نفسه على خدمة ربه إلى أن ذهبت ساعاته وأيامه . قيل : مكث بشر الحافي خمسين سنة يشتهي هريسة ففتح عليه في بعض الأيام بدرهم فمضى إلى السوق ليشتريها به فسمع الهراس ينادي : ماذا خبىء للصوام فرجع باكياً ولم يشتر شيئاً ، فبقي مدة تطالبه نفسه بها فخرج إلى السوق ثانياً ليشتريها وإذا بالهراس ينادي : بقي القليل . فبكى ورجع وعاهد الله تعالى أن لا يذوقها :

للّه در السادة الزهاد في كل بر مقفر أو نادي هجورا المراقد في الظلام لربهم
واستبدلوا سهراً بطيب رقاد كتموا الضنى حفظاً له وتحملوا فأتت عليهم حرقة الأكباد
ألوانهم تنبيك عن أحوالهم ودموعهم منهلة كغواد لا يفترون إذا الدجى وافاهمو
من كثرة الأذكار والأوراد نظروا إلى الدنيا تقرب أهلها لوصالها وتكرّ بالإبعاد
فترحلوا عنها وجدّوا في التقى وتزودوا من صالح الأزواد ومشوا على سنن النبي المصطفى
خير الأنام الهاشمي الهادي بالله كرر ذكره وحديثه وأجده وبالتلحين لي يا حادي
ردّد بعيشك لي حديث محمد فلذاذة الإسماع في الترداد لولاه ما هجر الأنام ديارهم
كلا ولا صبروا عن الأولاد فمتى أزور جنابه وضريحه وأبث ما عندي له وأنادي
يا سيد الكونين يا من حبه حقاً أقام بمهجتي وفؤادي يا ربنا فبحقه وبجاهه
وبآله الأنجاد والأمجاد اغفر لنا كل الذنوب تفضلاً يا خير مدعوّ وخير جواد

يا رب صلّ على النبي محمد ما سار مشتاق بليل هادي

إلهي وقف السائلون ببابك ، ولاذ الفقراء بجنابك ، ووقفت سفينة المساكين على ساحل بحر كرمك يرجون الجواز إلى ساحة رحمتك ونعمتك . إلهي إن كنت لا تكرم في هذا الشهر الشريف إلا من أخلص لك في صيامه ، فمن للمذنب المقصر إذا غرق في بحر ذنوبه وآثامه . إلهي إن كنت لا ترحم إلا الطائعين فمن للعاصين ، وإن كنت لا تقبل إلا العاملين فمن للمقصرين . إلهي ربح الصائمون وفاز القائمون ونجا المخلصون ونحن عبيدك المذنبون ، فارحمنا برحمتك وجد علينا بفضلك ومنتك واغفر لنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس السادس

في وداع شهر رمضان جعلنا الله وإياكم ممن تقبل فيه عمله وغفر له خطاياه وزلله

الحمد لله الذي عزت معرفته فلا يدركك بالمعقول خافيها ، وجلت صفته فلا يتكدر بالمنقول صفو صافيها ، وتمت كلمته فلا يردّ حكم قاضيها ، وعلت سلطنته فجل تعاليها ، ودامت أزليته فمن ذا يضاهيها ؛ توحده الكائنات ونواحيها ، والسموات ودراريها . قدر الأعوام والشهور والأيام ولياليها ، وجعل واسطة عقد الأيام أياماً اختارها باريها ، وفضل شهر رمضان وجعله معظماً فيها ، وأنزل فيه السور ومثانيها ، وفتح فيه باب العزة وأنزل منه آيات جلت عن كلام يحاكيها . فقال تعالى في محكم الآيات ومبانيها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ : [البقرة : ١٨٣] تفضيلاً لهذه الأمة إذ لا أمة تباهيها . هل كان لغيرها من الأمم فخر « الصوم لي وأنا أجزي به » والجزاء تمتع الأبصار بنور باريها . هل قيل لغيرها بالإعلان : « للصائم فرحتان » وأسمع ذلك قاصيها ودانيها ؟ هل بشر سواها بليلة القدر التي تنزل الملائكة والروح فيها ؟ هل أعطى غيرها فضل هذه الأيام من شهر رمضان ولياليها ؟ ففي أول ليلة منه تفتح أبواب الجنان وتقبل الحور والولدان من سائر نواحيها ، ويقولون لرضوان : يا أمين الرحمن ما بال الجنان قد أشرقت معانيها ؟ فيقول لهم : هذه أول ليلة من شهر رمضان الذي تبلغ النفس في أمانيها . ثم تغلق أبواب النيران وتصفد مردة الجان وتمنع من تصرفها وتدانيها . وتكتب أسماء العتقى وتأتي الملائكة بالبشارة لهذه الأمة وتهنيها . وفي كل ليلة منه يسلم رب العزة على نفوس الصوام ويحييها . فإذا كانت ليلة القدر ينزل جبريل عليه السلام ويقول للملائكة : بشروا الصائمين فقد أنالهم مولاهم خيرات لا تستطيع الأنفس تحصيها ، وتفتح في تلك الليلة أبواب السموات وتنزل الملائكة من أول الليلة وتقوم تلك الليلة في الأرض وتحييها ، وتصافح الصوّام الذين عكفوا على القيام تحت دياجيها وتعلن تسبيحاً وتنزيهاً لباريها :

هذي ليالي تجلى سره فيها ... على نفوس رأت أنوار ساقيها
شهر الصيام صفت للقوم حضرته ... دارت كؤوس التداني والرضا فيها
يا حبذا شهر فضل عرف خلوته ... يفوح مسكاً فلا طيب يضاهيها

وفيه أوقات قرب نور جلوتها نوّر العرش والدينا وما فيها
يا غافلاً وليالي الصوم قد ذهبت زادت خطاياك قف بالباب وابكيها
واغنم بقية هذا الشهر تحظ فما غرسته من ثمار الخير تجنيها
وتب لعلك تحظى بالقبول عسى أن تبلغ النفس بالتقوى أمانيها
وقل إلهي أنا العبد الذليل وقد أتيت أرجو أجوراً فاز راجيها
فلا تكلني إلى علمي ولا عملي واغفر ذنوبي فإني غارق فيها

[**وروى أبو أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه**] عن النبي ﷺ أنه قال : « من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر كله » :

وقد صمت عن لذات دهري كلها ويوم لقاكم كان فطر صيامي

[**وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه**] قال : قال رسول ﷺ : « يقول الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » فيا من يبارز بالعصيان ولم يستحي من رقيبه . وقد دنا فراق شهر رمضان وما فاز بمصالحة حبيبه . وقد هب نسيم القبول وما نشق عرف طيبه . أما سمعت قول الملك المنان في فضل شهر رمضان وترغيبه : « الصوم لي وأنا أجزي به » :

من كان يشكو عظم داء ذنوبه فليأت في رمضان عند طبيبه ويفوز من عرف الصيام بطيبه
أو ليس قال الله في ترغيبه الصوم لي وأنا الذي أجزي به
يا صائمي رمضان فوزوا بالمنى وتحققوا نيل السعادة والغنى وثقوا بوعد الله إذ فيه الهنا
أوليس هذا القول قول إلهنا الصوم لي وأنا الذي أجزي به
من صام نال الفوز من رب العلا وبوجهه أضحى عليه مقبلا يا من يروم توسلا وتوصلا
صم رغبة في قول رب قد علا الصوم لي وأنا الذي أجزي به
يا فوز من للصوم قام بحقه وأتى بحسن القوم فيه وصدقه ومن الجحيم نجا وفاز بعتقه
فالله قال عن الصيام لخلقه الصوم لي وأنا الذي أجزي به

[**وقيل**] : إن العبد إذا مات ونزل به عذاب القبر جاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك ، وإذا احتوشته الشياطين جاءه ذكر الله تعالى فخلصه من أيديهم ؛ وإذا احتوشه ملائكة الغضب جاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ؛ وإذا تلهب عطشاً في القيام جاءه صوم شهر رمضان فسقاه .

[**إخواني**] انظروا إلى بركات شهر رمضان ونفعه لكم في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا فيحميكم من الشهوات والموجبة للنار والعذاب . وأما في الآخرة فتفوزون بالعفو والرضا من

الملك الوهاب :

ما أحسن العفو من القادر ... الصفح عن مندمة الغادر
بالله يا من تاب ثم انثنى ... لا تفسد الأول بالآخر

[**وروى عن أبي سليمان الداراني رحمة الله عليه**] : أنه صام يوماً في الحر ثم نام فرأى قائلاً يقول له : أتبيع ثواب صومك في هذا اليوم بمائة ألف دينار ؟ فقال : لا وعزة ربي . قيل فبأيّ شيء تبيعه ؟ فقال : لا أبيع الثواب بالدنيا وما فيها . ولكن أبيعه بالنظر إلى المولى ، فقيل له : صم فسوف تراه إن شاء الله تعالى :

إذا اجتمع الأحباب في خلوة الرضا ... بمقعد صدق والنسائم عاطره
ترى أعين العشاق نحو حبيبهم ... إلى ذلك الوجه المقدس ناظره
فيا نفس هذا مشروب القوم فاشربي ... عسى أن تكوني عند ذلك حاضره

يقول الله تعالى في كتبه المنزلة : يا عبدي تأهب للقائي فعن قريب ألقاك ، وأقبل على خدمتي فإني أنا مولاك ، بأيّ عين يراني من بارزني وعصاني ؟ بأيّ وجه يلقاني من نسي عظمة شأني ؟ لقد خاب من حجبته عني إذا قربت الصادقين مني ، وشقي من طردته عن جنابي إذا كشفت حجابي فتجليت للمتقين من أحبابي . يا عبدي قف على بابي فأنا الكريم ، ولذ بجنابي فصراطي مستقيم :

بادر إلى الأعمال ما ... دمت بذي الدنيا مقيم ... يا من يحدّث نفسه ... بدخول جنات النعيم
إن كنت متقياً فأنـ ... ـت على صراط مستقيم ... لا ترجونّ سلامة ... من غير ما قلب سليم
فاسلك طريق المتقيـ ... ـن وظن خيراً بالكريم ... واذكر وقوفك خائفاً ... والناس في أمر عظيم
إما إلى دار الشقا ... وة أو إلى العز المقيم ... فاغنم حياتك واجتهد ... وأنب إلى الرب الرحيم

[**إخواني**] هذا شهر رمضان قد عزم على الانصراف والانصرام ، ونوى النقلة عنكم والرحيل بعد المقام ، وهو شاهد لكم أو عليكم بما أودعتموه من الأعمال عند الملك العلام ، طالما عمرت به القلوب ودرست به معالم الذنوب والآثام . وقد كان لكم نعم الضيف . فهل أضعتم حقه أو قمتم بما يجب له من الإكرام ؟ فلعل المسوّف فيه بالتوبة لا يدركه بعد هذا العام والمغتر بالإهمال لا تهمله المنون إلى استكمال التمام ، فيندم حين لا ينفعه الندم ويتأسف على التفريط إذا زلت به في القيامة القدم :

فاستدركوا فائت ما قد مضى ... فإنما الدنيا كثمل المنام
وحصلوا التوبة في شهركم ... فقد دنا ترحال شهر الصيام

فالسعيد من بادر هذه البقية بالاغتنام ، والشقي من جعل هذه البقية بغفلته كالإعدام .

وكيف لا يدرك الخير من قام في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر بالصلاة وجعل التقوى إمام . أما هذه ليالي القبول فلم يغتر المفرط فيها بالأحلام ؟ أما هذه ليالي القدر وليالي القبول فإلى متى أنت مشغول فيها بطيب المنام ؟ . [كان وكان] :

انهض وداوي سقامك هذي ليالي المغفرة وامح قبيح آثامك في سالف الأعوام
لو كنت تعرف قدرك وأنت من أهل الوفا ما نمت ليلة قدرك وفاتك الإنعام
ثم الصلاة جهارا على النبي المصطفى الهاشمي التهامي الصائم القوّام

قال بعض الصالحين رحمة الله عليهم : حضرت مجلس منصور بن عمار الواعظ رحمة الله عليه في آخر جمعة من شهر رمضان فذكر فضل صيامه وأجر قيامه وما أعدّ الله فيه لمن أخلص الأعمال وتجنب الإهمال فكأنه يقدح زند وعظه على صم الأحجار لا والله ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ : [البقرة : ٧٤] فما تحرك في مجلسه باك ولا شكا عظم ذنبه شاك . فلما رأى جمود مجلسه قال : يا قوم ألا باك على ما ظهر من عيوبه ؟ ألا راغب إلى الله تعالى في غفران ذنوبه ! أما هذا شهر التوبة والغفران ! أما هذا معدن العفو والرضوان ! أما فيه تفتح أبواب الجنان ! أما فيه تغلق أبواب النيران ! أما فيه يصفد كل مارد وشيطان ! أما فيه تفرق خلع الإحسان ! أما فيه يتجلى الملك الديان ! أما فيه يعتق كل ليلة عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار ؟ فما لكم عن ثوابه ضالون وفي ثياب المخالفة رافلون ! ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ : [الطور : ١٥] فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون :

إذا وجد الإنسان للخير فرصة ولم يغتنمها فهو لا شك عاجز
وهل مثل هذا الشهر للعفو موسم ولكن فأين العامل المتناهز

قال : فهاج المجلس بالبكاء والنحيب . وقام إليه شاب وهو باك على ذنوبه حزين كئيب وقال : يا سيدي أتراه يقبل صيامي أو يكتب مع القائمين بعد أن جرى مني ما كان من الذنوب والعصيان قد انقضى عمري في كسب المعاصي وغفلت بشقوتي عن يوم الأخذ بالنواصي ؟ فقال له الشيخ : يا ولدي تب إليه فقد قال في محكم الكتاب : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ : [طه : ٨٣] ثم أمر الشيخ القارىء فقرأ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ : [الشورى : ٢٥] فصرخ الشاب وقال : واطرباه واشوقاه إلى من لم يزل إحسانه واصلاً إليّ وذيل حلمه مسبلاً عليّ وأنا مع ذلك أزيد في العصيان ولا أرجع عن طريق الغيّ والخذلان ! وهل يكون مثل هذا الوقت وقت صفا ؟ والحبيب قد تجاوز وعفا ! ثم صرخ ووقع ميتاً رحمة الله عليه :

روح دعاهـــا للوصـــال حبيبـــها فســـعت إليـــه تطيعـــه وتجيبـــه
يـــا مـــدعي صـــدق المحبـــة هكـــذا فعـــل الحبيـــب إذا دعـــاه حبيبـــه

[كان وكان]

يـا مـن تقضـى عمـره دع عنك نومك والكسل واعلـم بـأن أعمالـك تعـرض علـى الـديان
كـم ذا تبـهرج بفعلـك ولـيس يخفـى بهرجـك غـداً تبـان الفضـائح وينصـب الميـزان
إن كنـت تطلـب توبـة انهـض فهـذا وقتـها فبعـد خمـس ليـال يقـال فـرغ رمضـان
يرحـل ومـا أودعتـه إلا زخـاريف العمـل واحسرتك حين يشهد عليـك بالخسـران
تصـم نهـارك ولـما تفطـر تحصـل فايتـك تشبع وتنسى الجائع هـذا هـو الخـذلان
تحضر صـلاة التـراويح بالجسـم حاضـر إنمـا القلب غائب يسعى في كـان فـلان وفـلان
تقطـع صـيامك غيبـة والصوم قبوله من عجب تأكـل لحـوم العـالم وترتجـي الإحسـان
من لـيس يحفـظ لسـانه ولا الجوارح عـن الزلـل مالـه مـن الصـوم إلا يقضـي النـهار جيعـان
نصحت جهدي ولكـن النصح يصعب على الشقي بنصـح حالـك والله عمـري مضـى مجـان
بـالله عليـك ثم وودع شهر الصيام قبـل السـفر ولا تخلـه يرحـل وهـو عليـك غضـبان
بيض سـواد الصـحيفه فالموت أدنى مـن نفـس وخف إلـهك تحظـى منـه غـدا بأمـان

[إخواني] كيف لا يبكي على فراق شـهر رمضـان ؟ كيـف لا يتأسـف علـى شـهر العفـو والغفران ؟ كيف لا يحزن على شهر العتق من النيران ؟ .

وقد قيل : إن الجنة لتتزين من الحول إلى الحول لدخول شهر رمضان حتى إذا كان أول ليلة منه هبت ريح من تحت العرش يقال لها المثيرة فيصفق ورق الجنة وحلق المصارع فيسمع لـذلك طنين لم يسمع السامعون أحسن منه وتتزين منه الحور العين ويقمن بين شرافات الجنة فينادين : هل من خاطب إلى الله عز وجل فيزوجه الله عز وجل ثم يقلن : يا رضـوان مـا هـذه الليلـة ؟ فيجيبهن بالتلبية . ثم يقول : يا خيرات حسان هذه أول ليلة من شهر رمضان ويقـول الله عـز وجل ؛ يا رضوان افتح أبواب الجنان للصائمين من أمة محمد ﷺ ، يا جبريل اهبط إلى الأرض فصفد مردة الشياطين وغلهم بالأغلال ثم اقذف بهم في لجج بالبحار حتى لا يفسدوا علـى أمـة محمد ﷺ صومهم . ويقول الله تعالى في كل ليلة من شهر رمضان ثلاث مرات : هل من تائـب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فأعطيه سؤله ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ ولله تعالى في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيـق مـن النـار كلـهم قـد استوجبوا العذاب فإذا كان في اليوم الأخير من شهر رمضان أعتق الله في ذلك اليـوم بعـدد مـا أعتق من أول الشهر إلى آخره .

[إخواني] ارغبوا فيما عند الله عز وجل من الأجر والثواب ، وودعوا شهر رمضان فقد عزم على الذهاب ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل غلق الباب . فهذا شهر رمضان قد أزف رحيله ، وحان تحويله ، ولم يبق إلا كضيف طارق ، أو حبيب عما قليل مفارق . فأكثروا فيه من العمل الصالح وزودوه بالبكاء والأسف وودعوه . فللّه درّ أقوام صاموا عن الشهوات وقاموا في كل الخلوات . يرتلون القرآن ترتيلاً ، فلو رأيتهم وقت السحر هذا يبكي ويعدد ، وهذا يقرأ ويردّد ، وهذا يترنم بالقرآن فيطرب أسماعاً ويسبي عقولاً ، وهذا قد تردى بأكفانه ، وهذا قد التحف بأحزانه ، وهذا يبكي فيمطر من أجفانه سيولاً :

شهر الصيام لقد كرمت نزيلا ... ونويت من بعد المقام رحيلا ... وأقمت فينا ناصحا ومؤدبا
وشفيت منّا بالفؤاد غليلا ... نبكيك يا شهر الصيام بأدمع ... تجري فتحكي في الخدود سيولا
أسفاً على الأنس الذي عودتنا ... وصنيع فعل لا يزال جميلا ... شهر الأمانة والصيانة والتقى
والفوز فيه لمن أراد قبولا ... تبكي المساجد حسرة وتأسفاً ... إذ عطلت من أنسه تعطيلا
فيه الجنان تفتحت لقدومه ... وتزينت ولدانها تحفيلا ... وتفيأت أشجارها بظلالها
وقطوفها قد ذللت تذليلا ... والحور للصوام يشتقن اللقا ... والوصل والتقريب والتعجيلا
والنار يغلق بابها من أجله ... إذ زاده رب العلا تبجيلا ... والمارد الشيطان فيه قد غدا
عن صائميه مصفداً مغلولا ... طوبى لمن قد صح فيه صيامه ... ودعا المهيمن بكرة وأصيلا
وبليله قد قام يختم ورده ... متبتلاً لإلّهه تبتيلا ... يرتاح فيه إلى الخطاب وقد غدا
يتلو الكتاب مرتلاً ترتيلا ... يبكي لفرقة شهره أسفاً على ... تقصيره إذ لم ينل تحصيلا
شهر يفوق على الشهور بليلة ... عن ألف شهر فضلت تفضيلا ... هي ليلة مستغنم أوقاتها
وتنزلت أملاكها تنزيلا ... يا فوز عبد قد رآها مرة ... في عمره إذ أدرك المأمولا
من قامها يغفر له ما قد مضى ... من ذنبه وينال فيها السولا ... فاجهد عساك تنالها فيما بقى
بالجد واحذر أن تكون غفولا ... واسأل إلّهك بره ونواله ... يعطيك فضلاً من لدنه جزيلا
ثم اقتدي بالهاشمي المصطفى ... أزكى الورى في العالمين أصولا ... المجتبى المختار أفضل من غدا
في المذنبين مشفعاً مقبولا ... صلى عليه الله جل جلاله ... ما دام نجم في السماء أفولا

[إخواني] مضى شهر رمضان وكأنه ما كان ، وشهد على المسيء بالإساءة وعلى المحسن بالإحسان . وحصل كل على ما قسم له من ربح وخسران . فيا حسرة المفرط لقد أضاع الزمان . ويا خيبة المسّوف كأنه أخذ من الموت الأمان . اعلم أن القضاء يمهله إلى رمضان ثان . هذا شهركم قد انتصب لكم مودعاً وسار مسرعاً فأين البكاء لرحيله ؟ وأين الاستدراك لقليله ؟ وأين الاقتداء بفاعل الخير ودليله ؟ فللّه ما كان أطيب زمانه في صوم وسهر . وما كان

أصفى أوقاته من آفات الكدر . وما كان ألذ الاشتغال فيه بالآيات والسور . فيا ليت شعري من قام بواجباته وسننه . ومن اجتهد في عمارة زمنه . ومن الذي أخلص في سره وعلنه . ومن الذي تخلص من آفات الصوم وفتنه .

[إخواني] راحة الغريب عن الديار في البكاء والضراعة . إخواني : كيف من نسي أهله وإخوانه وأتباعه ؟ إخواني : سودت وجوهنا الزلات ، فمتى تبيض بالطاعات ؟ إخواني : أكثروا من التضرع إلى الله عز وجل في هذه الساعة . وقولوا برفيع الأصوات : إلٰهنا لا تحرمنا من نبيك الشفاعة . واجعل التقوى لنا أربح بضاعة . ولا تجعلنا في شهرنا هذا من أهل التفريط والإضاعة . وآمن خوفنا يوم تقوم الساعة . برحمتك يا أرحم الراحمين .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس السابع

في فضائل ليلة القدر أعاد الله علينا وعليكم من بركاته

الحمد لله الذي أحكم الأمور وقدرها وقدر الأشياء ودبرها . ودبر الموجودات وصورها . وصور الخليقة وأظهرها . وأظهر الأسرار وطهرها . وطهر القلوب ونورها ونور الكواكب وسيرها وسير الأفلاك وسخرها وسخر الرياح ونشرها ونشر السحب وأمطرها وأمطر الرياض وأزهرها وأزهر الأشجار وأثمرها وطيب أنفاس الأسحار بطيب الأذكار وعطرها وفضل مواسم الطاعات على سائر الأوقات وللخيرات والبركات بسرها وشرف شهر رمضان على جميع الشهور وخص لياليه بالفضل المشهور وبتوفير الأجور شهرها وميزها بليلة القدر التي هي خير من ألف شهر وجعلها واسطة عقد الدهر فطوبى لمن عظمها ووقرها ، يا لها من ليلة ما أبركها وأنورها ! وما أكثر خيراتها وأغزرها ! تفتح فيها أبواب السموات ! وتنزل الملائكة بالبشارات لمن أحياها من الأنام ! ومنع جفونه من المنام وأسهرها ! فيا فوز من تلذذ فيها بالمناجاة وتملى ! وتهنى فيها بطاعات مولاه وتحلى ! وشاهد أنواره لما تجلى ! وسجدت له جميع المخلوقات وقد أذهلها في أنواره وحيرها ! فيا لها من ليلة ما رفعت إليه فيها قصة محتاج إلا نظرها ! ولا وصلت إليه دعوة مظلوم إلا أنجزها ونصرها ! ولا صعدت إليه أنفاس كربة إلا أزال كربها وضرها ! ولا انتهت إليه شكاية ملهوف إلا أزال عنها الحرج وأتاها بالفرج وبشرها ! ولا تضرعت بين يديه

معتذرة إلا قبلها وعذرها ! ولا توجعت من أجله قلوب منكسرة إلا أغاثها بلطفه وجبرها ! فسبحان من اطلع في هذه الليلة الشريفة على الذنوب فغفرها ! وعلى العيوب فسترها ! وعلى القلوب فسكنها وعمرها ! وعلى حوائج السائلين فقضاها بفضله ويسرها :

شهدت بالقهر له الأفلا ... ك مع الأملاك فسخرها ... وأتت بالباب ذوو الحاجات
تروم الفضل فيسرها ... كم قد رفعت قصصاً وشكت ... غصصاً للشوق فبشرها
هامت في الليل به الأحبا ... ب فحط الحجب وسامرها ... ولقد نظرت لما حضرت
في حضرته إذ أحضرها ... كأساً يملى وسنا يجلى ... لقلوب القوم فأسكرها
تاهت وبه باهت ولقد ... سهرت في الحب فساهرها ... وجلا أقداح كؤوس الذكر
لها فلهذا استأثرها ... فله نظرت لها اشتهرت ... بمحبته إذ أسهرها
ما أسعدها ما أزهدها ... ما أرشدها ما أذكرها ... ما أجملها ما أكملها
ما أحلمها ما أصبرها ... فليالي القدر لها كشفت ... ولها الباري قد أظهرها

فتعالى رباً مقتدراً ... خلق الأشياء ودبرها
وقضى الآجال مع الأعما ... ل لكل الخلق وقدرها

أحمده على نعمه التي نشرها وأغزرها . وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له شهادة نافعة لمن عنده ادخرها . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أيد الله له الشريعة ونصرها . وهدى الأمة إلى طريق الصواب وبصرها . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته التي برأها الله تعالى من الرجس وطهرها . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ : [القدر : ١] إلى آخرها . قال ابن عباس رضي الله عنهما : أنزل الله تعالى القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في ليلة القدر من شهر رمضان . قال المفسرون : بيت العزة في سماء الدنيا . وفي تسميتها بليلة القدر خمسة وجوه : **أحدها** : أن القدر هو العظمة وهي ليلة عظيمة .

الثاني : أنه الضيق فهي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين ينزلون من السماء . **الثالث** : أن القدر هو الحكم فإن الأشياء تقدر فيها . **الرابع** : أن من لم يكن له قدر يصير بمراعاتها ذا قدر . **الخامس** : أنه نزل فيها كتاب ذو قدر وملائكة ذوو قدر . واختلفوا هل ليلة القدر باقية إلى زماننا هذا ؟ أم كانت في زمن النبي ﷺ خاصة ؟ على قولين : أصحهما أنها باقية إلى زماننا هذا وأنها في شهر رمضان . واختلفوا أيّ الليالي أخص بها على ستة أقوال : **أحدها** : أن الأخص بها أول ليلة من شهر رمضان . **الثاني** : هي ليلة الحادي والعشرين . **الثالث** : هي ليلة الثالث والعشرين . **الرابع** : هي ليلة الخامس والعشرين . **الخامس** : هي ليلة السابع

والعشرين . **السادس** : هي ليلة التاسع والعشرين . وقيل : إنها تنتقل في أفراد العشر الأواخر من شهر رمضان . قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ : [القدر : ٢ – ٣] قال مجاهد : قيامها والعمل فيها خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : ذكر عندَ رسول الله ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه ألف شهر في سبيل الله فتعجب أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك عجباً شديداً وتمنوا أن يكون لهم مثل ذلك فدعا ربه : أي رب أنت جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً وأقلها أعمالاً فأعطاه الله ليلة القدر ، فقال : يا محمد ليلة القدر خير من ألف شهر وأعطيتك وأمتك هذه الليلة في كل سنة خيراً لك ولهم من بعدك إلى يوم القيامة في كل شهر رمضان ليلة خير من ألف شهر ، وألف شهر ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر . قال تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ : [القدر : ٤] جبريل عليه السلام ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ : [القدر : ٤] قال المفسرون : ينزلون بكل أمر قضاه الله تعالى في تلك السنة وقدره إلى قابل ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ ﴾ أي سلامة لا يحدث فيها داء ولا يرسل فيها شيطان ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ [القدر : ٥] أي إلى طلوع الفجر :

هي ليلة القدر التي شرفت على ... كل الشهور وسائر الأعوام ... من قامها يمحو الإلٰه بفضله
عنه الذنوب وسائر الآثام ... فيها تجلى الحق جل جلاله ... وقضى القضاء وسائر الأحكام

فادعوه واطلب فضله تعط المنى ... وتجاب بالإنعام والإكرام
فالله يرزقنا القبول بفضله ... ويجود بالغفران للصوام
ويذيقنا فيها حلاوة عفوه ... ويميتنا حقاً على الإسلام

[**روى أبو هريرة رضي الله عنه**] عن النبي ﷺ أنه قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه البخاري ومسلم رحمهما الله . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ رأى ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر ، فقال رسول الله ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر من رمضان فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر » رواه البخاري ومسلم . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان شد مئزره وأحيا الليل كله وأيقظ أهله » رواه البخاري ومسلم رحمهما الله ، وروى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إني كنت رأيت ليلة القدر ثم أنسيتها فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان في الوتر من لياليها ، وهي ليلة طلقة بلجة لا حارة ولا باردة كأن فيها قمراً لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها » . وقال عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فبم أدعو ؟ قال قولي : « اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني » .

[وعن محمد بن كعب رضي الله عنه] قال : بينما عمر رضي الله عنه جالس في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين إذ ذكروا ليلة القدر ومعهم ابن عباس رضي الله عنهما فتكلم كل رجل بما سمع عنها وعبد الله ساكت . فقال له عمر رضي الله عنه : ما لك لا تتكلم يا بْنَ عباس ؟ تكلم ولا تمنعك الحداثة ، فقال : إن الله تعالى وتر يحب الوتر ، وإنه جعل أيام الدنيا تدور على سبع ، وخلق الإنسان من سبع ، وخلق أرزاقنا من سبع ، وجعل فوقنا سبع سموات ، وجعل تحتنا سبع أراضين ، وجعل البحار سبعاً ، وجعل ما يقع في السجود من أعضائنا سبعاً ، وحرم من نكاح الأقربين سبعاً ، وقسم المواريث بينهم على سبع ، وأعطى نبيه ﷺ المثاني سبعاً ، ورمى الجمار بسبع . فأظنها والله أعلم ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان فتعجب عمر رضي الله عنه وقال : يا قوم من كان يروي هذا كرواية ابن عباس رضي الله عنهما ؟ ويقال : إن عدد كلمات هذه السورة ثلاثون كلمة . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ : آخرها و « هي » الكلمة السابعة والعشرون فدل أنها ليلة السابع والعشرين . ويقال : خصت تلك الليلة وفضلت بنور شجرة طوبى ، وقال بعضهم : هو من نور الرحمة ، وقال بعضهم : من نور لواء الحمد ، وقال بعضهم : من نور أجنحة الملائكة ، وقال بعضهم : من نور الطاعات ، وقال بعضهم : من نور أسرار العارفين ، وقال بعضهم : من نور الهيبة . ثم إن ليلة القدر ليلة مرغوبة وهي أفضل الليالي :

لليلة القدر عند الله تفضيل	وفي فضائلها قد جاء تنزيل	فجدّ فيها على خير تنال به
أجراً فللخير عند الله تحصيل	واحرص على فعل أعمال تسرّ بها	يوم المعاد ولا يغررك تأميل
فكم رأينا صحيح الجسم ذا أمل	في ليلة القدر لم يبلغه تنويل	فتب إلى الله واحذر من عقوبته
عن كل ما فيه توبيخ وتنكيل	ولا تغرنك الدنيا وزخرفها	فكل شيء سوى التقوى أباطيل

وقال بعضهم في قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يعني الرحمة في هذه الليلة وحدها خير وأكثر من الرحمة في ألف شهر ، معناه أن رحمتي على العصاة والمذنبين فيه هذه الليلة وحدها مثل رحمتي عليهم في ألف شهر ، وإنما سميت ليلة القدر لوجهين : **أحدهما** : أنها ليلة لها قدر وجاه ومنزلة وشرف عند الله تعالى فسميت ليلة القدر ، وقال أبو الفضل : يعني ليلة القدر يقدر فيها الأرزاق والآجال والأمراض والمصائب والبلايا والعافية والفرح والسرور والربح والخسران وما يكون في مثل هذه الليلة إلى مثلها من عام قابل ، وعن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إذا كانت ليلة القدر نزلت الملائكة وهم سكان سدرة المنتهى وجبريل عليه السلام معهم ومعهم أربعة ألوية فينصب لواء منها على قبري ولواء منها على طور سيناء ولواء منها على ظهر المسجد الحرام ولواء منها على ظهر بيت المقدس ولا

يدع بيتاً فيه مؤمن ولا مؤمنة إلا دخله وسلم عليه ، يقول : يا مؤمن ويا مؤمنة : السلام يقرئك السلام فإذا طلع الفجر فأول من يصعد جبريل عليه السلام حتى يكون على الوجه الأعلى بين السماء والأرض فيبسط جناحه فتصبح الشمس لا شعاع لها حتى يدعو ملكاً ملكاً فيصعدون فيجتمع نور الملائكة ونور جناح جبريل عليه السلام فتصبح الشمس بيضاء لا شعاع لها فيقوم جبريل عليه السلام ومن معه من الملائكة بين السماء والأرض يومهم ذلك في دعاء واستغفار للمؤمنين والمؤمنات . فإذا أمسوا دخلوا سماء الدنيا ، فتقول لهم ملائكة سماء الدنيا : مرحباً بأشرافنا وساداتنا من أين أقبلتم ؟ فيقولون : أقبلنا من عند أمة محمد ﷺ فيقولون : ما صنع الرب سبحانه وتعالى في حوائجهم ؟ فيقولون : غفر لصالح أمة محمد ﷺ وشفع صالحهم في طالحهم فيصيحون إلى الله تعالى بالتسبيح والتحميد والتقديس شكراً لما أعطاه الله سبحانه وتعالى لأمة محمد ﷺ . ثم يسألونهم عن رجل رجل وامرأة امرأة فيقولون : ما فعل فلان ما فعلت فلانة ، فيقولون : وجدنا فلاناً عام الأول متعبداً ووجدناه هذا العام مبتدعاً فيكفون عن الاستغفار له ، ووجدنا فلاناً عام الأول مبتدعاً ووجدناه هذا العام متعبداً فيستغفرون له ويدعون له ، ووجدنا فلاناً يذكر الله تعالى ، ووجدنا فلاناً راكعاً ووجدنا فلاناً ساجداً ، ووجدنا فلاناً تالياً لكتاب الله تعالى ، ووجدنا فلاناً باكياً فيدعون لهم ويستغفرون لهم ، ثم يصعدون إلى السماء الثانية فهم في كل سماء يوماً وليلة في دعاء واستغفار لأمة محمد ﷺ حتى ينتهوا إلى مكانهم من سدرة المنتهى ، فتقول لهم سدرة المنتهى : أين غبتم هذه الأيام ؟ فيقولون : كنا عند نزول رحمة الله تعالى على أهل الأرض في ليلة القدر ، فتقول لهم : ما صنع الرب بهم ؟ فيقولون : غفر لمحسنهم وشفعه في مسيئهم . قال : فتهتز سدرة المنتهى وتثني على الله تعالى بالتسبيح والتقديس والشكر لما أعطى الله تعالى لأمة محمد ﷺ فتسمعها جنة المأوى وهي مطلة عليها فتقول : يا سدرة المنتهى لم اهتززت ؟ فتقول : أخبرني سكاني عن جبريل عليه السلام أن الله تعالى غفر لأمة محمد ﷺ وشفع محسنهم في مسيئهم فتصيح جنة المأوى بالتسبيح والتقديس والثناء والشكر لما أعطى الله تعالى لأمة محمد فتسمعها جنة النعيم وهي مطلة عليها فتقول : يا جنة المأوى لم صحت ؟ فتقول : أخبرتني سدرة المنتهى عن سكانها عن جبريل عليه السلام أن الله تعالى غفر لأمة محمد وشفع محسنهم في مسيئهم فتصيح جنة النعيم كذلك ثم جنة عدن ويسمع منها الكرسي ، فيقول كذلك ، ثم يسمع العرش . فيقول : يا كرسي لم صحت ؟ فيقول : أخبرتني جنة عدن عن جنة النعيم عن جنة المأوى عن السدرة عن سكانها عن جبريل عليه السلام أن الله تبارك وتعالى غفر لأمة محمد ﷺ وشفع محسنهم في مسيئهم قال :

فيهتز العرش طرباً ويصيح . فيقول الجليل جلّ جلاله : لم صحت ؟ وهو أعلم فيقول : يا رب أخبرني الكرسي عن جنة المأوى عن السدرة عن سكانها عن جبريل عليه السلام أنك يا أرحم الراحمين قد غفرت لأمة محمد ﷺ وشفعت صالحهم في طالحهم فيقول الله عز وجل : صدق جبريل وصدقت سدرة المنتهى وصدقت جنة المأوى وصدقت جنة النعيم وصدقت جنة عدن وصدق الكرسي وصدقت يا عرش ، أعددت لأمة محمد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

[**إخواني**] انظروا ما خصكم الله به من الإنعام والإكرام وحباكم به من العطايا الجسام وشرفكم بنبيّ الرحمة ورسول الهدى وأنقذكم ببركته من الردى ووهب من أسرف في الذنوب واعتدى لمن أحسن وعمل صالحاً ثم اهتدى . فاستدركوا رحمكم الله مواسم العمر فحادي الموت بالرحيل قد حدا ، واغتنموا ليلة القدر فلعل أن تكتبوا في ديوان السعداء ، فإنها ليلة تفوق ليالي الدهر وهي خير من ألف شهر ، ما دعا الله داع إلا أجابه وبلغه أملاً ومقصداً ، ولا سأله سائل إلا أعطاه سؤله وجاد عليه بالفضل والندى . فيا فوز من أحياها ويا سعادة عبد رآها لقد نال فخراً وسؤدداً . وقد جاء في صحيح الإسناد أنها تلتمس في ليالي الإفراد فاطلبوها في هذه الأعداد تظفروا بحسن القبول ونيل المراد غداً ، فيا أيها الضالّ عن طريق الهدى أما تخاف عاقبة الردى ! أما سمعت الحادي وقد حدا ! أما أنْ تسلك طريقاً رشداً ! أما تغنم ليالي القدر التي تجلو عن قلبك الصدا :

يا أيها العبد قم لله مجتهداً ... وانهض كما نهضت من قبلك السعدا
هذه ليالي الرضا وافت وأنت على ... فعل القبيح مصرّاً ما جلوت صدا
قم فاغتنم ليلة تحيا النفوس بها ... ومثلها لم يكن في فضلها أبدا
طوبى لمن مرة في العمر أدركها ... ونال منها الذي يبغيه مجتهدا
فليلة القدر خير قال خالقنا ... من ألف شهر هنياً من لها شهدا
فيها القرآن بأمر الله أنزله ... إلى السماء وقد خاب الذي جحدا
في ليلة القدر جلّ الله أنزله ... بعلمه وبهذا النص قد وردا
فيها تفتح أبواب السماء لمن ... يرى من الكشف من يعطي بها مددا
وينزل الروح فيها والملائك من ... عند المهيمن لن تحصى لهم عددا
يا فوز عبد رآها إنه رجل ... قد عاش في الدهر عيشاً دائماً رغدا
وفاز بالأمن والغفران مغتبطاً ... ونال ما يرتجى من ربه أبدا
فاطلب من الله إن وافيتها سحراً ... جنات عدن تكن من جملة السعدا

وابك ونح وتضرع في الدجى أسفاً ... ولذ بجاه شفيع المذنبين غدا
خير البرية من عجم ومن عرب ... محمد خير مبعوث بدين هدى
الهاشمي الذي شاعت رسالته ... جهراً وأسخى الورى بالمكرمات يدا
هو البشير النذير المستضاء به ... ومن بإحسانه عمّ الأنام ندى
وأنه خير من يمشي على قدم ... وخير من فاق مولوداً ومن ولدا
صلى عليه إلّه العرش ما طلعت ... شمس وما سارَ سارٍ في الفلا وحدا

إلّهي وقف السائلون ببابك ، ولاذ الفقراء بجنابك ، ووقفت سفينة المساكين على ساحل بحر كرمك ، يرجون الجواز إلى ساحة رحمتك ونعمك ، إلّهي إن كنت لا ترحم في هذا الشهر الشريف إلا من أخلص لك في صيامه وقيامه فمن للمقصر إذا غرق في بحر ذنوبه وآثامه ، إلّهي إن كنت لا ترحم إلا المطيعين فمن للعاصين ، وإن كنت لا تقبل إلا العاملين فمن للمقصرين ، إلّهي ربح الصائمون وفاز القائمون ونجا المخلصون ونحن عبيدك المذنبون فارحمنا برحمتك وجد علينا بعفوك ومنتك واغفر لنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس الثامن

في ذكر حجاج بيت الله الحرام وما أعدّ الله لهم من الإفضال والإنعام ، جعلنا الله وإياكم في هذا العام ممن فاز بحج البيت الحرام وزيارة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام

الحمد لله ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ولا يخشى فناء ولا زوالاً ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ شهود على عظمته لا يجد العقل له شبيهاً ولا مثالاً ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ولا يطيق أحد بين يديه جواباً ولا سؤالاً ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وفوقاً وتحتاً ويميناً وشمالاً ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ

مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ ولا يدرك أحد لكنهه مثالاً ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ وكل يبدي من هيبته خوفاً وإجلالاً ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ وإن كانا ثقالاً ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] الذي تعالى وتعاظم عزاً وجلالاً :

جلّ رب في عزه قد تعالى ... وسما قدره وعز منالا
أحد ماجد كريم عظيم ... ليس يخشى على الدوام زوالا
جلّ عن مشبه له ونظير ... ليس تحصى له العقول مثالا

فسبحانه من إلّه افترض حج بيته الحرام على عباده فشدوا إليه رحالاً ، دعاهم لقربه فما استبعدوا في حبه بعيداً ولا استهولوا أهوالاً ، سار بهم الدليل فكيف يضلون السبيل ووجوههم في ظلام الليل تتلالا فلو رأيت النياق يا هذا كيف تمدّ بوادي العقيق الأعناق فتنشر أشواقاً وتطوي رمالاً . فإذا وصلت إلى شريف حرمه وحططت بباب كرمه رحالاً ، نادى منادي القبول عند الوصول ارتجالاً :

قد دعا الشوق للحبيب رجالا ... قطعوا في السرى إليه رمالا ... حبذا قد أتوه شعثاً وغبرا
يرتجون النوال والإفضالا ... قد أتوا يهرعون من كل فج ... فارقوا في رضاه أهلاً ومالا

ثم نادوا بجمعهم في حماه ... يا كريماً إذا استقيل أقالا

فسبحان من شرف البيت العتيق ، بركن من ركن إليه نجا من الهمّ والضيق ، وبباب من دخل إليه كان آمناً وكتب له توقيع التوفيق ، وبميزاب تنصبّ منه الرحمة على من سلك إلى الخير أقوم طريق ، وبحجر يشهد لمن قبله بالوفاء والتصديق ، وبحجر سبى العقول بالمحبة إليه والتشويق ، وبحرم تأتي إليه الوفود مشاة وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق :

عن أيمن الشعب بوادي العقيق ... لا السنا من نحو ذاك الفريق
وقد بدت أعلام وادي النقا ... والقلب مأسور ودمعي طليق
طوبى لقوم أدركوا قصدهم ... وكابدوا كل عسير وضيق
ويمموا البيت فبشراهمو ... لما أتوا من كل فج عميق

فسبحان من شرف بيته على سائر الأماكن والأقطار ، وجعل ترابه جلاء للأبصار . ووعد من طافه بتضعيف الأجر والثواب وأن يسقيه من شراب الاقتراب رحيقاً سلسبيلاً ، هذه صفة كعبة الله التي مَنْ عظمها كان معظماً مبجلاً ، ومن أقبل إليها كان مولاه عليه مقبلاً ، فكم من محب مات شوقاً إليها ولم يبلغ منها أملاً ، فلسان حاله يقول عندما لبست من خلع القبول حللاً :

يا كعبة الحسن كم من عاشق قتلا شوقاً إليك ورام الوصل ما وصلا
قد يتمت بعد الأولاد حين سرى وظل يبكي بدمع فاض منهملا
فكم غريق بحار في هواك غدا وآخر ظل في البيداء منجدلا
وأنتمو معشر الزوّار قربكم إلى مقام به أمن لمن دخلا
فلا تخافوا فأنتم في ضيافته فهو الكريم الذي بالجود ما بخلا

فللّه درّ أقوام دعاهم مولاهم إلى جنابه فساروا إلى بابه شعثاً وغبراً ، وعرفهم بعرفات أنه قد تجاوز عن الذنوب والزلات فسجدوا له حمداً وشكراً ، فإذا زمزم لهم الحادي بذكر زمزم والعقيق وقصدوا ذلك الفريق ألقى في قلوبهم من الشوق لهباً وجمراً ، ونادي الصب الكئيب وقلبه بذكر الحبيب مغرم مغرى :

بشيري بأيام الوصال لك البشرى عساك رأيت الحيّ والخيم الحمرا
وشاهدت سكان العقيق وحاجر وبانت لك الأعلام والقبة الخضرا
ولاح لك الحسن البديع صفاته وأصبحت مثلي هائماً مغرماً مغرى
بعيشك حدثني وقل لي عن الحمى وعن أهله إن شئت أن تغنم الأجرا
رعى الله أياماً تقضت بقربكم وطيب ليال ما عرفت لها قدرا

فيا أيها الغافل ونسيم القبول قد هب من الأراضي الحجازية وأتى بطيب أخبارها ، وروى أن عروس الكعبة المعظمة قد جليت في حلل أستارها وتجلت للطائفين ففازوا بمشاهدتها وقرب مزارها وأدركوا السعود بالصعود إلى عرفات وفازوا في منى برمي جمارها فواشوقاه إلى ليالي منى فقد طالت عليّ مدة انتظارها :

واحسرتي ضاع الزمان باطلا ولم تصل روحي إلى أوطارها وقد تذكرت زمان وصلها
فهاجت الأشجان من تذكارها متى أرى الكعبة تجلى جهرة ويقرب البعيد من مزارها
وأجتليها بعد طول حسرة في حلل البهاء من أستارها وبعدها أسعى إلى خير الورى
مستنقذ الأمة من أوزارها المجتبى الهادي الرسول المرتضى محمد المختار من نزارها
صلى عليه الله ما هبت صبا وضوعت شذاه في أقطارها

قال الله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] قال ابن عباس رضي الله عنهما : معنى السبيل أن يصح بدن العبد ويكون له زاد وراحلة من غير أن يجحف به ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يعني من كفر بالحج فلم ير حجه براً ولا تركه إثماً ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال

رسول الله ﷺ : « من أتى هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » ، وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيداً من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو ثم يباهي بها الملائكة ، فيقول ما أراد هؤلاء ؟ فيقولون يا ربنا يريدون العفو والمغفرة ، فيقول الله تعالى : يا ملائكتي أشهدكم أني قد غفرت لهم وعفوت عنهم » . فللّه درّ أقوام رأوا خدمة مولاهم في دنياهم ربحاً ومغنماً ورأوا تضييع الأوقات في غير الطاعات خسراناً ومغرماً ، أوقفهم على عرفات قربه فأضحى كل منهم بحبل حبه معتصماً ، غفر ذنوبهم وبلغهم مطلوبهم ونشر لهم بالسعادة علماً :

يا فوز قوم قد أتوا لجنابه فأباحهم منه الرضا والمغنما قوم على عرفات قد وقفوا وقد
باهى بهم ذو العرش أملاك السما إذ قال يا أهل السموات انظروا وفدي وكل قد أضرّ به الظما

أشهدتكم أني قد غفرت ذنوبهم وعفوت عنهم أجمعين تكرما

[**وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه**] قال : « خطبنا رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس إن الله تعالى قد فرض عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل أفي كل عام يا رسول الله ؟ فسكت . فقال : يا رسول الله أفي كل عام ؟ قال : لا ، ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم » رواه مسلم وأحمد والنسائي رضي الله تعالى عنهم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد » رواه النسائي رضي الله عنه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم » رواه ابن ماجه ، وفي لفظ آخر : « الحجاج والعمار وفد الله إن سألوه أعطاهم وإن استغفروه غفر لهم وإن دعوه استجاب لهم وإن شفعوا شفعوا » :

فَهُمُوا وفدي إذا ما حضروا عند بيتي يطلبون الزلفا أُعْطِهم ما سألوني جهرة
وأنلهم من جنابي غرفا وإذا ما اجتمعوا أسمعتهم من جنابي أنّ مولاكم عفا

فأبشروا بالفوز مني والرضا قد دنا الوصل وقد زال الجفا

[**وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه**] قال : قال رسول الله ﷺ : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » رواه البخاري ومسلم . قال العلماء : الحج المبرور : الذي ليس بعده معصية كما قال الفضيل بن عياض لبعض من حج : يا هذا إن الله تعالى يختم على عمل الحاج بطابع من نور فإياك أن تفك ذلك الختم بمعصية الله عز وجل :

أبشر فحجك مقبول ومبرور وكل سعيك محمود ومشكور وما تصدقت في أرض الحجاز به
فأجره لك عند الله مدخور وكل سعي وما قدمت من عمل فإنه لك بعد الربح موفور

فإن حججت ولم تأتي بمعصية نلت المراد وأنت اليوم مسرور

[**وعن أبي رزين العقيلي رضي الله تعالى عنه**] أنه أتى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج والعمرة فقال : « حج عن أبيك واعتمر » رواه الترمذي وابن ماجه والنسائي رضي الله عنهم ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « قلت : يا رسول الله هل على النساء من جهاد ؟ قال : نعم عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة » .

[**إخواني**] كيف تتخلفون عن الحج وقد فرضه الله على العباد ، وكيف لا ترغبون فيه وهو ذخيرة لكم يوم المعاد ، وكيف لا تهتمون به وقد قيل : ليدخلنّ الجنة ثلاثة نفر بالحجة الواحدة الموصي بها والمنفذ لها والحاج عنه ؟ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله كلمات أسأل عنهن ، قال : اجلس ، وجاء رجل من ثقيف فقال : يا رسول الله كلمات أسأل عنهن ، فقال رسول الله ﷺ : سبقك الأنصاري ، فقال الأنصاري : إنه رجل غريب وإن للغريب حقاً فابدأ به فأقبل على الثقفي ، فقال : إن شئت أخبرتك عما جئت تسأل ، وإن شئت سألتني وأخبرك ، فقال : يا رسول الله بل أخبرني عما جئت أسألك فإنه أعجب قال : جئت تسألني عن الركوع والسجود والصلاة والصوم ، فقال : والذي بعثك بالحق نبياً ما أخطأت مما كان في نفسي شيئاً ، قال : فإذا ركعت فضع راحتيك على ركبتيك ثم فرج بين أصابعك ثم امكث حتى يأخذ كل عضو مأخذه ، وإذا سجدت فمكن جبهتك ولا تنقر نقراً وصلّ بأول النهار وآخره ، فقال : يا نبيّ الله فإن أنا وصلت بينهما ، قال : فأنت إذاً مصلّ ، وصم من كل شهر ثالث عشرة ورابع عشرة وخامس عشرة ونم أول الليل وقم أوسطه ونم آخره ، فإن قمت من أوسطه إلى آخره فأنت إذاً مصلّ ، فقام الثقفي ثم أقبل الأنصاري ، فقال : إن شئت أخبرتك عما جئت تسأل وإن شئت سألتني فأخبرك فقال : يا نبيّ الله أخبرني عما جئت أسألك ، قال : جئت تسألني عن الحاج ما له حين يخرج من بيته وما له حين يقوم بعرفات وما له حين يرمي الجمار وما له حين يحلق رأسه وما له حين يقضي آخر طواف بالبيت ، فقال : يا نبي الله ، والذي بعثك بالحق ما أخطأت مما كان في نفسي شيئاً ، قال : فإن له حين يخرج من بيته أن راحلته لا تخطو خطوة إلا كتب له بها حسنة أو حطت عنه بها خطيئة ، فإذا وقف بعرفة فإن الله عز وجل ينزل إلى سماء الدنيا ، فيقول : انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً اشهدوا أني قد غفرت لهم ذنوبهم وإن كانت عدد قطر السماء

ورمل عالج ، وإذا رمى الجمار لا يدري أحد ما له حتى يوفاه يوم القيامة ، وإذا قضى آخر طواف بالبيت خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » رواه ابن ماجه في صحيحه ، وفي لفظ آخر عن أنس بن مالك ﷺ قال : « جاء رجل من الأنصار يسأل النبي ﷺ ، وجاء رجل من ثقيف يسأله أيضاً ، فقال رسول الله ﷺ : يا أخا ثقيف إن أخاك الأنصاري قد سبقك بالمسألة فاجلس كيما نبدأ بحاجة الأنصاري قبل حاجتك فتغير وجه الثقفي ، فقام الأنصاري . فقال : يا رسول الله ابدأ بحاجة الثقفي قبل حاجتي فإني رأيته آنفاً تغير وجهه وأخاف أن يكون قد وجد عليك وما يسرني ذلك فأخرني ، فدعا النبي ﷺ للأنصاري بخير ، ثم قال : يا أخا ثقيف سل عما بدا لك وإن شئت أنبأتك بالذي جئت تسألني عنه ، فقال : يا رسول الله أخبرني فهو عجب إليّ ، فقال : جئت تسألني أيّ الشهر تصوم وأيّ الليل تقوم وجئت تسألني كيف تصنع في ركوعك وكيف تصنع في سجودك ؟ فقال : والذي بعثك بالحق إنه الذي أردت أن أسألك عنه ، فقال : صم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ونم أوّل الليل وقم وسط الليل ونم آخر الليل ، فإن قمت في وسطه إلى آخر ، فأنت إذا مصلّ وإذا ركعت فضع يديك على ركبتيك وفرّج بين أصابعك ، فإذا سجدت فمكن جبهتك من الأرض ولا تنقر نقراً ، ثم قال : يا أخا الأنصار سلني عما بدا لك وإن شئت أنبأتك بالذي جئت تسألني عنه ، فقال : يا رسول الله حدثني كما حدثت صاحبي فهو أعجب إليّ ، قال : جئت تسألني عن خروجك من بيتك تؤم المسجد الحرام مالك فيه من الأجر وجئت تسألني عن وقوفك بعرفات ما لك فيه من الأجر وجئت تسألني عن رميك الجمار ما لك فيه من الأجر وجئت تسألني عن حلقك رأسك ما لك فيه من الأجر وجئت تسألني عن طوافك ما لك فيه من الأجر وجئت تسألني عن شيء غيره فقال : والذي بعثك بالحق إنه الذي أردت أن أسألك عنه . قال فإن خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام يكتب الله لك بكل خطوة تخطوها حسنة ويحط عنك بها خطيئة ويرفع لك بها درجة ، وأما ركعتاك للطواف فكعتق رقبة ، وأما سعيك بين الصفا والمروة فكعتق سبعين رقبة ، وأما وقوفك بعرفات فإن الله تبارك وتعالى يطلع على أهل عرفات فيقول عبادي أتوني شعثاً غبراً أتوني من كل فج عميق فيباهي بهم الملائكة ، فلو كان عليك من الذنوب مثل رمل عالج وعدد نجوم السماء وقطر البحر والمطر غفرها لك ، وأما رميك الجمار فإنه مدخور لك عند ربك أحوج ما تكون إليه ، وأما حلقك رأسك فإن لك بكل شعرة تقع منك نوراً يوم القيامة ، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك وهو طواف الصدر فتطوفه ولا ذنب عليك ويأتي ملك فيضع يده بين كتفيك ، ثم يقول لك قد غفر الله لك ما مضى فأحسن فيما بقي أفيضوا مغفوراً لكم ولمن شفعتم فيه » . فللّه درّ الفائزين بالحج ، لقد بلغوا الأماني وأدركوا الأمان وساعدهم على نيل

مقاصدهم الزمان ، فازوا بحج البيت الحرام ، وقد كفر عنهم مولاهم الذنوب والآثام . يا فوزهم قد سرت بهم المطايا وحط عنهم ثقل الخطايا والعصيان ، وفازوا بنيل المطلوب وحصول القبول والرضوان [وينشد من كان وكان] :

فازوا بنيل الأماني ... وأدركوا مطلوبهم ... من الإله وطافوا ... بالبيت والأركان
وبالمقام تمللوا ... وبالحطيم تمتعوا ... وشاهدوا النور يجلى ... فيه بكل مكان
طوبى لهم إذ نالوا ... مرادهم لما سعوا ... بين الصفا والمروة ... في طاعة الرحمن
يا بالغين مناهم ... وفائزين بحجهم ... بشراكمو قد أراكم ... كل الرضا بأمان
فزتم بما أملتم ... والله عنكم قد عفا ... عن كل ما قد فعلتم ... في سالف الأزمان

وقال الشبلي رحمه الله : الحج حرفان : حاء وجيم ، فالحاء من الحلم والجيم من الجرم والإشارة فيه كأنه يقول : يا رب أتيتك بجرمي وجفائي إلى حلمك ورحمتك فإن لم تغفر لي جرمي فمن يغفر لي ؟

[**إخواني**] ما كل مسافر حاج ولا كل جبل عرفات ولا كل بيت مكة ولا كل زاد يوصل .

[**إخواني**] سار الأحباب في ليل العزم ونمتم وربحوا في معاملتهم وما غنمتم لو تفكرتم فيما فاتكم لندمتم ، يا منقطعين عن القوم إن لم تنهضوا للحاق الإخوان فابكوا معي على البعد والحرمان :

إذا ما دعا داع إلى البيت والحجْرِ ... أجابته أجفان مدامعها تجري
ولي كلما سار الحجيج إلى منى ... حنين وأشواق تجلّ عن الحصر
فجسمي مقيم في الديار ومهجتي ... بخيف منى مع كل ركب يسري
أعلل بالصبر الفؤاد وإن دنا ... أوان مسير الركب لم يغنني صبري
وأذكر أهوال الطريق وأجرها ... فيسهل عندي ما أخاف من العسر
وإن خفت من فقر تقول عزيمتي ... تقدم فكم بالفخر فاز أخو فقر

وقيل : ثلاثة لا تردّ له دعوة : الصائم حتى يفطر ، والمريض حتى يعافى ، والحاج حتى يقدم . وقيل : من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الركن اليماني ليستلمه خاض في الرحمة ، فإذا استلمه وقال : بسم الله والله أكبر أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله غمرته الرحمة ، فإذا طاف بالبيت كتب الله له بكل قدم سبعين ألف حسنة ومحا عنه سبعين ألف سيئة .

[**إخواني**] اغتنموا هذه الفوائد والربح ، فمن اجتهد وجدّ وجد وليس من سهر كمن رقد والفضائل والفوائد تحتاج إلى وثبة كوثبة أسد .

[إخواني] من أوقد مصباح الذكر لاحت له الأعلام ، ومن تغرب في بادية الشوق ظهرت له الخيام :

إذا ما الخيام البيض لاحت لشيق ... فعرج فإنا بعدها بقليل
ترانا على الأطناب صرعى من الهوى ... نكفكف دمعاً لافتقاد خليل
وكم أنة أردفتها بتحسر ... وكم عبرة أتبعتها بعويل
قفوا وانظروا ذلي وعز معذبي ... تروا عجباً من قاتل وقتيل

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الحكمة في أفعال الحج وما في المناسك الشريفة من المعاني اللطيفة ؟ فقال : ليس من أفعال الحج ولوازمه شيء إلا وفيه حكمة بالغة ونعمة سابغة ونبأ وشأن وسر يقصر عن وصفه كل لسان . فأما الحكمة في التجرد عند الإحرام فإن من عادة الناس إذا قصدوا أبواب المخلوقين لبسوا أفخر ثيابهم من اللباس فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول القصد إلى بابي خلاف القصد إلى أبوابهم لأضاعف لهم أجرهم وثوابهم ، وفيه أيضاً أن يتذكر العبد بالتجرد عند الإحرام التجرد عن الدنيا عند نزول الحمام كما كان أولاً لما خرج من بطن أمه مجرداً عن الثياب ، وفيه شبه أيضاً بحضور الوقف يوم الحساب كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء : ٤٠] ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

تجرد عن الدنيا فإنك إنما ... خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد
وتب من ذنوب موبقاتٍ جنيتها ... فما أنت في دنياك هذي مخلد

وأما الاغتسال عند الإحرام فلحكمة ظاهرة الإحكام ، وهو أن الله تعالى يريد أن يعرض الحجاج على الملائكة ليباهي بهم الأنام فلا يعرضون على الملائكة الكرام إلا وهم مطهرون من الأدناس والآثام ، وفيه أيضاً حكمة أخرى وهي أن الحجاج يضعون أقدامهم على موضع أقدام الأنبياء الأبرار فيكونون قبل ذلك قد اغتسلوا لينالوا بركتهم في تلك الآثار كما قال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ : [البقرة : ٢٢٢] .

تطهر من الذنب يا مذنب ... إذا شئت من بابه تقرب
وكن راضياً بالذي يرتضي ... فإن رضا الحِبِّ يستعذب

وأما الحكمة في التلبية فإن الإنسان إذا ناداه إنسان جليل القدر أجابه بالتلبية وحسن الكلام ، فكيف بمن ناداه مولاه الملك العلام ودعاه إلى جانبه ليُكفّر عنه الذنوب والآثام ، وإن العبد إذا قال : لبيك يقول الله تعالى ها أنا دان إليك ومتجل عليك فسل ما تريد فأنا أقرب من حبل الوريد :

عبد دعاه لقربه مولاه فأجابه باللطف حين دعاه
وأتى يلبيه بفرط تذلل يا فوزه بالربح إذ لباه

وأما الحكمة في الوقوف بعرفة وأخذ الجمار من المزدلفة فإن فيه أسراراً لذوي العلم والمعرفة فمعناه كأن العبد يقول : سيدي حملت الذنوب والأوزار ، وقد رميتها في طاعتك بالإقرار إنك أنت الكريم الغفار :

إليك من هجرك أبغي الفرار وأنت ما زلت مقيل العثار
فاغفر لعبد راح في قلبه من ألم الأوزار وقد الجمار

وأما الحكمة في الذكر عند المشعر الحرام وما فيه من الأجور العظام فكأن الحق تعالى يقول : اذكروني أذكركم ، من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من مَلَئِهِ ، فإذا ذكرتموني عند المشعر الحرام ذكرتكم بين ملائكتي الكرام ، وكتبت لكم توقيع الأمان من حلول الانتقام :

ذكرتك يا سؤلي وغاية مقصدي وأنت لنا يا سيدي خير ذاكر
فجد بقبول منك أرجو به المنى فذكرك في قلبي وسري وخاطري

وأما الحكمة في حلق الرأس بمنى ففيه حكمة يبلغ بها العبد جميع المنى ، وذلك أن فيه يقظة وتذكيراً لا يفهمها إلا من كان عالماً نحريراً لأن الحاج إذا وقف بعرفة وذكر الله عند المشعر الحرام وضحى بمنى وحلق رأسه وطهر بدنه من الأدناس والآثام كتب الله عز وجل له ثواباً وضاعف له أجوراً ووقاه جحيماً وسعيراً ، وجعل له بكل شعرة يوم القيامة نوراً وأعطى توقيع الأمان كما قال الله تعالى في كتابه المكنون : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ [الفتح : ٢٧] .

إلى بابكم أسعى وإني مقصر فقير إليكم فارحموا زلة البعد
فإن تطردوني ليس لي غير بابكم وإن أنتمو عني رضيتم فيا سعدي

وأما الحكمة في الطواف وما فيه من المعاني والألطاف ، فإن الطائف بالبيت يقول بلسان حاله عند دعائه وابتهاله : سيدي أنت المقصود ، وأنت الرب المعبود ، أتيت إليك مع جملة الوفود ، وطفت ببيتك المشهود ، وقمت ببابك أرجو الكرم والجود ، وقد سبق خطابك لخليلك الأمين في محكم كتابك المبين : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج : ٢٦] .

بسجود الجباه في الأرض ذلاً بطواف الحجاج عند القدوم
جد علينا بتوبة يا إلّهي ثم فرج عنا جميع الهموم

وأما الحكمة في الوقوف بعرفات ، وما فيه من المعاني البديعة الصفات ، فإن فيه تنبيهاً وتذكيراً بالوقوف بين يدي الحق سبحانه وتعالى يوم القيامة حفاة عراة مكشوفي الرأس واقفين على أقدام الحسرة والندامة يضجون بالبكاء والعويل ويدعون مولاهم دعاء عبد ذليل ، كما قيل :

وقفت بالذل في أبواب عزكمو مستشفعاً من ذنوبي عندكم بكمو
أعفر الخد ذلاً في التراب عسى أن ترحموني وترضوني عبيدكمو
فإن رضيتم فيا عزي ويا شرفي وإن أبيتم فمن أرجوه غيركمو
لا بلّغ الله عيني طيب رؤيتكم إن طاب للسمع يوماً غير ذكركمو
إن مت في حبكم شوقاً فيا شرفي ويا سروري بموتي فيكمو بكمو
وإن نويت اصطباراً عن محبتكم عدمت طيب مسرّاتي بأنسكمو
نسيت كل طريق كنت أعرفها إلا طريقاً تؤديني لربعكمو
أنا المقرّ بذنبي فاصفحوا كرماً فبانكساري وذلي قد أتيتكمو
لا تطردوني فإني قد عرفت بكم وصرت بين الورى أدعى بعبدكمو

فللّه درّ أقوام دعاهم مولاهم إلى البيت العتيق ، فأجابوا داعي الوجد والتشويق ، وساروا إليه مشاة على قدم التصديق ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق :

ما أشوقني إلى نسيم الرند يشفي سقمي إذا أتى من نجد
والشيح فإنه مثير الوجد شوقي شوقي لهم ووجدي وجدي

[قال عليّ بن الموفق رحمة الله عليه] : حججت إلى بيت الله الحرام فطفت به أسبوعاً وقبلت الحجر الأسود وصليت ركعتين واستندت إلى جدار الكعبة وأنا أبكي وأقول : كم أتردّد إلى هذا البيت وأحضر ولا أدري : هل قبلت أم لا ثم غلبتني عيناي فنمت نوماً خفيفاً ، فبينما أنا بين النائم واليقظان إذ سمعت هاتفاً يقول : يا علي بن الموفق قد سمعنا مقالتك أفتدعو أنت إلى بيتك إلا من تحب ؟ :

الناس بطيب وصلهم قد سعدوا وأنا المضنى بهجرهم منفرد
هم ما وجدوا بحبهم ما أجد ما جن بحبهم جنوني أحد

[وقيل] : وقف بكر ومطرّف بعرفات ، فلما عج الحجيج بالبكاء والضجيج بكى بكر ،

وقال : ما أحسنه من مقام لولا أني فيهم ، وقال مطرف وقد تغير وجهه وانتقع لونه : اللهم لا تردهم من أجلي :

ما ضر ريح الصبا لو نسمت حرقي ... واستنقذت مهجتي من أسر أشواقي
داء تقادم عندي من يعالجه ... ومن يكون له من هجرهم راقي
تمضي الليالي وآمالي مقسمة ... ممن أحب على مطل وإملاقي
واضعية العمر لا الماضي انتفعت به ... ولا حصلت على شيء من الباقي

[ويروى عن محمد بن المنكدر] أنه حج ثلاثاً وثلاثين حجة ، فلما كان آخر حجة حجها قال وهو بعرفات : اللهم إنك تعلم أنني قد وقفت موقفي هذا ثلاثاً وثلاثين وقفة واحدة عن فرضي والثانية عن أبي والثالثة عن أمي وأشهدك يا رب أني قد وهبت الثلاثين لمن وقف موقفي هذا ولم تتقبل منه ، فلما دفع من عرفات ونزل بالمزدلفة نودي في المنام يا بْنَ المنكدر أتتكرم على من خلق الكرم ؟ أتجود على من خلق الجود ؟ إن الله تعالى يقول لك : وعزتي وجلالي لقد غفرت لمن وقف بعرفات قبل أن أخلق عرفات بألفي عام :

مذ تجلى لنا أنار الوجودا ... مانح يمنح المحبين جودا ... ودعا أمة الغرام إليه
فأتاه أهل الوفاء وفودا ... وأتى المذنبون ما بين باك ... خدد الدمع مع جواه خدودا

ثم نادوا يا دائم الجود يا من ... لم يزل محسناً كريماً ودودا
أنت قدماً وعدت من تاب بالعفـ ... ـو وها قد جئناك نرجوا الوعودا
سمعوا القول قد محونا الخطايا ... ورحمنا المهجور والمطرودا
وجبرنا بالعفو كل كسير ... كان قدماً يشكو الجفا والصدودا

[وعن علي بن الموفق رحمة الله عليه] قال : حججت في بعض السنين فنمت بين مسجد الخيف ومنى فرأيت ملكين قد نزلا من السماء . فقال أحدهما لصاحبه : يا عبد الله أتعلم كم حج بيت ربنا في هذه السنة ؟ قال : لا ، قال : ستمائة ألف ، ثم قال له : أتدري كم قبل منهم ؟ قال : لا ، قال : ستة أنفس ثم ارتفعا في الهواء فقمت وأنا مرعوب ، وقلت : واخيبتاه أين أكون أنا في هذه الستة أنفس ، فلما وقفت بعرفة وبت بالمزدلفة رأيت الملكين قد نزلا من السماء على عادتهما فسلم أحدهما على الآخر ، وقال : يا عبد الله أتدري ما حكم ربك في هذه الليلة ؟ : قال : لا ، قال : فإنه وهب لكل واحد من الستة المقبولين مائة ألف وقد قبلوا جميعاً . قال : فانتبهت وبي من السرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى إذ قبل الحجاج جميعهم ومنحهم براً وجوداً ولم يجعل منهم شقياً ولا محروماً ولا مطروداً :

قل للذي ألف الذنوب وأجرما وغـدا علـى زلاتـه متنـدما لا تيأسـن مـن الجميـل فعنـدنا
فضـل ينيـل التـائبين تكرمـا يا معشر العاصين جودي واسع توبـوا ودونكـم المـنى والمغنمـا

لا تخنعـوا مـن قـبح ذنـب سـالف إني أحـب بـأن أجـود وأرحمـا

[وقيل : إن رابعة العدوية رحمة الله عليها] حجت إلى بيت الله الحرام حافية تمشي على الأقدام وتؤثر بما يفتح الله عليها من الطعام ، فلما وصلت إلى الكعبة خرت مغشياً عليها ، فلما أفاقت وضعت خدها على البيت وأنشدت تقول :

هـذه دارهـم وأنـت محـب مـا بقـاء الـدموع في الآمـاق

ثم إنها طافت وسعت ، فلما أرادت الوقوف بعرفة حاضت فبكت وقالت : يا سيدي ومولاي لو وقع لي هذا من غيرك لشكوته إليك ، فكيف وقد وقع لي منك ؟ فسمعت هاتفاً يقول : يا رابعة قد قبلنا الحجيج كلهم من أجلك وجبرناهم لأجل كسرك :

أقام الهوى العذري لي فيكمو عـذرا فمن أجل ذا لم أستطع عنكمو صبرا
وأصبحت مشغوفاً آتيه على الـورى وأوسع من قد لامني في الهوى عذرا
فـإن كنـت أصـغي للعـذول فعـاذر علـى أنـه بالحـال مـن غـيره أدرى
ولي قمـر في أرض نجـد محلـه على أنه قد أخجل الشمس والبـدرا
ولمـا تبـدى حسـنه وجمالـه ولاح لعـيني نـور طلعتـه الغـرا
وهبت له روحي وقلت لـك الحشـا محلـك يـا مـن حسـنه حـير الفكـرا
إذا قـال يـا عبـدي أقـول ذكـرتني وسميـتني عبـداً وشـرفتني قـدرا
ومن أنـا يـا مـولاي حـتى ذكـرتني لقـد تم إسـعادي وذا أول البشـرى
فيا رب بالهادي البشير الـذي رقـى على ذروة الأفـلاك في ليلـة الإسـرا
وأرسـلته فينـا بشـيراً ومنـذراً ومـا زال في يـوم المعـاد لنـا ذخـرا
أذقنـا جميعـاً بـرد عفـوك واهـدنا إلى خـير أسـباب بهـا نغـنم الأجـرا
وشـفعه فينـا مـن ذنـوب تراكمـت وقد أثقلـت منـا الكواهـل والزهـرا
نـبي لـه في المعجـزات خـوارق تحـير في إدراكهـا العقـل والفكـرا
فضـائل لـو أن الـورى كلفـوا بهـا بياناً وحصراً مـا أطـاقوا لهـا حصـرا
عليـه سـلام الله مـا هبـت الصـبا وما حملت مـن طيبـة للـورى نشـرا

المجلس التاسع

في فضائل الكعبة التي شرفها الله تعالى وجعلنا وإياكم من القادمين عليها في هذا العام ومن الفائزين بزيارة قبر نبيه محمد عليه أفضل الصلاة والسلام

الحمد لله الذي أرشد العقول إلى توحيده وهداها ، وجعل توحيدها سبباً للنجاة في سفينة السلامة ، وقال الموحد : بسم الله مجراها ومرساها ، فاتصلت بمحبوبها وظفرت بمطلوبها ومناها ، وسارت في بحر مشاهدته فاستغرقت في لذة منادمته عندما ناداها ، أسمعها خطابه فطابت وأجابت لما دعاها ، أشهدها عجائب حكمته وأراها آثار قدرته في أرضها وسماها ، فالأفلاك بمشيئته سخرها والأملاك بإرادته دبرها عندما يراها ، فسبحانه من ملك عظيم أزليته كأبديته لا تنفد ولا تتناهى ، أحديته كأزليته لا تماثل ولا تضاهى ، فجل مقتدراً وعز رباً وتعالى إلّهاً ، رفع السماء بغير عمد وبحسن الإتقان بناها ، وبسط الأرض على الماء بحكمته ودحاها ، وجعل الكعبة البيت الحرام أشرفها بقعة وأعظمها رفعة ، وأكثرها بركة ووجاهة وجاهاً ، ودعا إليها نفوس أهل مجالسته ففازت بمؤانسته وصفا عيشها عند الصفا لما صفاها ، وهيمها في أودية وجدها عندما رفع عنها حجاب بعدها وإلى مقام قربه رقاها ؛ وزمزم لها مزمزم الشوق عند زمزم ومن رائق زلاله سقاها وألبسها خلع التكريم عند الحطيم فحط عنها كل ذنب عظيم وعفا عن زللها وخطاياها ، فلما انتهى الزوار من جميع الأقطار نادتهم بلسان حالها وقد رفعت الأستار عن جمالها وأبدت نورها وسناها :

إليّ إليّ يا عشاق حسني ... فهذا الوقت وقت لا يضاهى ... فكأس وصالها قد دار صرفاً
وشمس جمالها أبدت سناها ... وقالت دونكم قربي تملوا ... تسروا بجنابنا عزاً وجاها

فأين يصاب مثل عروس حسني ... وما في الكون معشوق سواها
وقد سعدت عيون قد رأتها ... وقد شقيت عيون لا تراها

فسبحان من شرّف الكعبة البيت الحرام وخصها والإجلال والإعظام واصطفاها ، وجعلها حمى مباحاً وجناباً رحباً لمن حام حول حماها ، وحرماً آمناً لمن دخل إليه ووفى ما عليه حين وافاها ، ووجهة لمن واجهها وأراد عنده جاهاً ، وهي التي هاجر منها الحبيب وما هجرها ولا قلاها ، وما انقلب قلبه إلى قبلة سواها ، حتى أنزل عليه في آيات سمعها وتلاها : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ

وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ ﴾ [البقرة : ١٤٤] :

فولي وجهك الحسن المفدى ... إليها حيثما كنت اتجاها ... فإن أباك إبراهيم قدماً
لأجل رضاك حقاً قد بناها ... وإسمعيل طاف بها ولبى ... وطهرها لمشتاق أتاها
هو البلد الأمين وأنت حل ... فطأها يا أمين فأنت طاها ... ووجه حيث كنت إذن إليها
ولا تعدل إلى شيء سواها ... فوجه الله قبلة كل حي ... لِمَنْ شهد الحقيقة واجتلاها
وهذا البيت بيت الله فيه ... تسر النفس إذ بلغت مناها ... وهذا الحجر والحجر المفدى
وزمزم والحطيم وما زهاها ... فهلل عند مشهده كفاحا ... وزمزم عند زمزمه شفاها
فيا حجاج بيت الله طوفوا ... بكعبته ولبوا في ذراها ... فطوبى ثم طوبى ثم طوبى
لنفس في منى بلغت مناها ... فقل للناسكين بكل فج ... لكم ثج وعج في رباها

فلا يجدي سوى الإخلاص حقاً ... ونيته التي فيها نواها
وإقلاع عن العصيان جهراً ... وتجريد لنفسك عن هواها
وإرفاق وإنفاق وبذل ... لذي الحاجات مما قد عراها
وتقوى الله أفضل كل زاد ... لنفس بالتقى عرفت هداها
فقل بلسان عزمك في رباها ... إذا شاهدت في المغني سناها
إليك شددت يا مولاي رحلي ... وجئت ومهجتي تشكو جواها
وها أنا جار بيتك يا رجائي ... وبالأستار ممتسك عراها
وللجيران والضيفان حق ... على الجار الكريم إذا دعاها
إليك شفيعنا الهادي المفدى ... ومَنْ قد حل جهراً في حماها
شفيع الخلق يوم الحشر حقاً ... رسول الله أقوى الناس جاها
عليه من المهيمن كل وقت ... صلاة غير منحصر مداها

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦ – ٩٧] قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ هي كعبة وضعها الله تعالى في الأرض قبالة البيت المعمور كما روى أن آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة وحج البيت لقيته الملائكة ، فقالت له : برّ حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام . قال : فما كنتم تقولون ؟ قالوا : كنا نقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . فكان آدم عليه السلام يقولها في طوافه ثم يقول : اللهم اجعل لهذا البيت عماراً من ذريتي ، فأوحى الله تعالى إليه : إني معمر بيتي من

ذريتك بنبي اسمه إبراهيم أتخذه خليلاً ، وإني لأقضي على يديه عمارته . فلما جاء الطوفان في عهد نوح عليه السلام رفع الله عز وجل البيت إلى السماء الرابعة ، وكان من زمردة خضراء وفيه قناديل من قناديل الجنة وأخذ جبريل الحجر الأسود فأودعه في جبل أبي قبيس صيانة له من الغرق . فكان مكان البيت خالياً إلى زمن إبراهيم عليه السلام فلما ولد له إسماعيل وإسحاق أمره الله تعالى ببناء بيت يذكر فيه فقال : يا رب بين لي صفته فأرسل الله تعالى سحابة على قدر الكعبة فسارت معه حتى قدم مكة فوقفت في موضع البيت ، ونودي : يا إبراهيم ابن على ظلها لا تزد ولا تنقص فكان جبريل عليه السلام يعلمه وإبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ذكره ابن عباس وابن شهاب وقتادة ، قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي آيات واضحات دالات على توفير الأجور والثواب . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ يعني آمناً من النار ، وقيل : آمناً من الفزع الأكبر ، وقيل : آمناً من الشرك ، وقوله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ الاستطاعة أن يكون قادراً على الزاد والراحلة ، وأن يصح بدن العبد ، وأن يكون الطريق آمناً . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي من كفر بالحج فلم ير حجه براً ولا تركه إثماً . وقال رسول الله ﷺ : « من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات بأحد الحرمين بعث يوم القيامة من الآمنين » ، وفي الحديث : « استكثروا من الطواف بالبيت فإنه من أفضل شيء تجدونه في صحفكم يوم القيامة وأغبط عمل تجدونه » ، وفي الخبر : « من طاف أسبوعاً في المطر غفر له ما تقدم من ذنبه » ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من طاف بالبيت خمسين مرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » رواه ابن حبان في صحيحه .

[وقيل] : إن الله تعالى وعد البيت بأن يحجه في كل سنة ستمائة ألف فإن نقصوا كملهم من الملائكة ، وإن الكعبة تحشر يوم القيامة كالعروس المزفوفة فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها . وفي الحديث : « إن الحجر الأسود ياقوته من يواقيت الجنة وإنه يبعث يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به فيشهد لمن استلمه بحق وصدق » وكان رسول الله ﷺ يقبله كثيراً ، وقبله عمر رضي الله عنه وقال : إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك لما قبلتك ، فقال عليّ كرم الله وجهه : لا تقل كذا ، بل هو يضر وينفع ، فقال له : يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات وتجاب الدعوات ، فقال عليّ : يا أمير المؤمنين ، بل هو يضر وينفع بإذن الله تعالى ، فقال : وكيف ، قال : لأن

الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتاباً ثم ألقمه هذا الحجر فهو يشهد للمؤمنين بالوفاء ويشهد على الكافرين بالجحود ، وهو معنى قول الناس عند الاستلام : اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ . وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : الصلاة بمكة بمائة ألف صلاة وصوم يوم بها بمائة ألف يوم ، وصدقة درهم بمائة ألف درهم ، وكذلك كل حسنة بمائة ألف :

يا كعبة الله لي غرام ... إليك لم يثنه ملام ... أنت لنا تشفعين حقاً
عند حبيب له ذمام ... تضاعف الحسنات فيك ... دوماً وزوارك الكرام

وجاء في الحديث : « إن الله تعالى ينظر كل ليلة إلى أهل الأرض وأول من ينظر إليهم أهل الحرم وأول من ينظر إليهم من أهل الحرم أهل المسجد الحرام فمن رآه طائفاً غفر له ومن رآه مصلياً غفر له ومن رآه مستقبل الكعبة غفر له » . وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ينزل على هذا البيت كل يوم مائة وعشرون رحمة ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين » . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « الحجر والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة » ، وعن ابن مسعود ﷺ : « وقف النبي ﷺ على ثنية المقبرة وليس بها يومئذ مقبرة . فقال : يبعث الله تعالى من هذه البقعة ومن هذا الحرم سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً » ، وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام » ، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « هذا البيت دعامة الإسلام من يخرج من بيته يطلب هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضموناً على الله أن يدخله الجنة إن قبضه وإن رده رده بأجر وغنيمة » . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٩] لأنه خلق قبل الأرض بألفي عام وسمي البيت عتيقاً لأن الله تعالى أعتقه من أيدي الجبابرة فلم يسلط عليه جباراً قط ، بل كل من قصده بسوء هلك . وقال أبو بكر الواسطي : إنما سمي عتيقاً لأن من طاف به صار عتيقاً من النار :

طوبى لمن طاف بالبيت العتيق وقد ... لجا إلى الله في سر وإجهار
ونال بالسعي كل القصد حين سعى ... وطاف جهراً بأركان وأستار
ذاك السعيد الذي قد نال منزلة ... عليا في دهره من كل أوطار
وكل من طاف بالبيت العتيق غدا ... بين الورى معتقاً حقاً من النار

وسُمّيَ أبو بكر الصديق عتيقاً ، فمن لم يتوجه إلى الكعبة لم تقبل صلاته ومن لم يشهد بولاية أبي بكر الصديق لم تقبل زكاته . وعن عبد الله بن سليمان قال : طاف آدم عليه السلام بالبيت سبعاً حين نزل على الأرض ، ثم صلى ركعتين ثم أتى الملتزم ، فقال : اللهم إنك تعلم سرّي وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم ما في نفسي فاغفر ذنوبي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي ، الله إني أسألك إيماناً يباشر قلبي ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي والرضا بما قضيت عليّ ، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم قد دعوتني بدعوات فاستجبت لك ، ولن يدعو بها أحد من ولدك إلا كشفت همومه وغمومه وكشفت عنه ضيقه ونزعت الفقر من قلبه وجعلت الغنى بي عينيه ورزقته من حيث لا يحتسب وأتته الدنيا وهي راغمة وإن كان لا يريدها . وعن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما كان بعد الطوفان الذي أغرق الله به قوم نوح ورفع البيت المعمور الذي كان بناه آدم عليه السلام إلى السماء السادسة أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يأتي إلى الموضع البيت ويبني على آثره فانطلق إبراهيم عليه السلام فلم ير له أثراً وخفي عليه مكانه ، فبعث الله سبحانه وتعالى سحابة على قدر البيت الحرام في الطول والعرض فيها رأس له لسان يتكلم وعينان فقامت على ظهر البيت بحياله ، ثم قالت : يا إبراهيم ابن على قدري وحيالي ، قال : فأخذ إبراهيم عليه السلام على ظهر قدرها وحيالها ، فأسس عليها البيت الحرام فذهبت السحابة ، ثم بناه حتى فرغ منه فطاف به أسبوعاً فأوحى الله تعالى إليه أن أذن في الناس بالحج قال : يا رب وما يبلغ صوتي ؟ قال : يا إبراهيم عليك بالنداء وعلينا البلاغ . وفي رواية : عليك الأذان وعلينا البلاغ ، فلما أمره بذلك صعد إبراهيم على جبل أبي قبيس ونادى : يا عباد الله ألا إن ربكم قد بنى بيتاً وأمركم بحجه فحجوه فأسمع الله عز وجل من في الأرض وأجابه الإنس والجن والحجر والمدر والشجر والجبال والرمال وكل رطب ويابس ، وأسمع من في المشرق والمغرب وأجابوه من بطون الأمهات ومن أصلاب الرجال كلّ يقول : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، فإنما يحج اليوم من أجاب يومئذ ، فمن لبى مرة حج مرة ومن لبى مرتين حج مرتين ومن لبى ثلاثاً حج ثلاثاً ومن لبى أكثر حج بقدر ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ أي رجالة ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ أي ركباناً على ضمر من طول السفر ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] . أي بعيد غامض :

لما رأيت مناديهم ألمّ بنا ... شددت مئزر إحرامي ولبيت
وقلت للنفس جدي الآن واجتهدي ... وساعديني فهذا ما تمنيت
لو جئتكم قاصداً أسعى على بصري ... لم أوف حقاً وأي الحق أوفيت

[وعن محمد بن كعب ﷺ] عن علي بن أبي طالب ﷺ قال : « كنت طائفاً مع النبي ﷺ بالبيت الحرام فقلت : فداك أبي وأمي ما هذا البيت ؟ قال لي : يا علي أسس الله تعالى هذا البيت في دار الدنيا كفارة لذنوب أمتي ، فقلت فداك أبي وأمّي ما هذا الحجر الأسود ؟ قال : تلك جوهرة كانت في الجنة أهبطها الله تعالى إلى الدنيا لها شعاع كشعاع الشمس فاشتد سوادها وتغير لونها منذ مستها أيدي المشركين » .

[إخواني] ما كل بيت كعبة ولا كل جبل عرفات ولا كل زاد يوصل ، فيا من فاته الحج ولم يجد إليه سبيلاً ومضى عمره في اللهو ، وقد حمل من الذنوب حملاً ثقيلاً ، وجر في ميدان العصيان بالغفلة منه ذيولاً ، وطلب النجاة فلم يجد إليها وصولاً ، بادر بالحج إلى بيت الله الحرام واجعل لك نور الإسلام دليلاً . فقد قال من لا تدركه الأبصار ولا تجد له العقول ولا الأفكار عديلاً ولا مثيلاً : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ فطوبى لمن حجه ، فأدرك ربحاً ومغنماً ودخل حرمه الذي هو أمن لمن دخله وحمى . أما شاقه الركب إذا سار إلى ذلك الجناب ميمماً ، أما أطربه الحادي إذا حدا باسم الحبيب مترنماً وغنى بذكره مزمزماً :

يا سائقاً غن النياق وزمزما ... أبشر فقد جئت المقام وزمزما
كم كنت تذكرنا منازل مكة ... وتقول إنّ بها المنى والمغنما
بردّ بماء سقاية العباس ما ... كابدته طول الطريق من الظلما
وانهض وهرول بين مروة والصفا ... وادخل إلى الحجر الكريم مسلما
ومقام إبراهيم زره مبادراً ... وبحجر إسماعيل صلّ معظما
وانظر عروس البيت يجلى حسنها ... للناظرين ولذ بها مستعصما
فهي التي ظهرت فضائلها فلا ... تخفى وهل يخفى سنا قمر السما
لم يلقها الإنسان إلا باكياً ... فرحاً بها أو ضاحكاً متبسما
والنور من أرجائها لا يختفي ... أبداً وإن جن الظلام وأعتما
ومن العجائب أنها محروسة ... والصيد فيها لا يزال محرّما
والطير لا يعلو على أركانها ... إلاّ ليشفى إذ غدا متألما
تختال في حلل السواد وبابها ... بالنور دام مبرقعاً وملثما
هي كعبة المولى الكريم وكل من ... وافى إليها حقه أن يكرما
يا رب قد وقفت ببابك عصبة ... يرجون منك تفضلاً وتكرما
ما منهمو إلا ذليل خاضع ... باك على زلاته متندما
ذا طالب فضلاً وذا متنصل ... مما جناه من الذنوب وقدّما

[قال وهب بن منبه ﷺ] مكتوب في التوراة : إن الله عز وجل يبعث يوم القيامة سبعمائة ألف ملك من الملائكة المقربين بيد كل واحد منهم سلسلة من ذهب إلى البيت الحرام فيقول لهم : اذهبوا فزموه بهذه السلاسل ، ثم قودوه إلى المحشر فيأتونه بتلك السلاسل ويمدونه وينادي ملك يا كعبة الله سيري فتقول : لست بسائرة حتى أعطى سؤلي فينادي ملك من جوّ السماء سلي فتقول الكعبة : يا رب شفعني في جيراني الذين دفنوا حولي من المؤمنين فتسمع النداء : قد أعطيتك سؤلك ، قال : فتحشر موتى مكة بيض الوجوه كلهم محرمين مجتمعين حول الكعبة يلبون . ثم تقول الملائكة : سيري يا كعبة الله فتقول : لست بسائرة حتى أعطى سؤلي فينادي ملك من جوّ السماء سلي تعطي فتقول الكعبة : يا رب عبادك المذنبون الذين وفدوا إليّ من كل فج عميق شعثاً غبراً تركوا الأهل والأولاد والأحباب وخرجوا شوقاً إليّ زائرين مسلمين طائعين حتى قضوا مناسكهم كما أمرتهم فأسألك أن تشفعني فيهم وتؤمنهم من الفزع الأكبر وتجمعهم حولي ، فينادي الملك فإن فيهم من ارتكب الذنوب بعدك وأصرّ على الكبائر حتى وجبت له النار فتقول : يا رب أسألك الشفاعة في المذنبين الذين ارتكبوا الذنوب العظام والأوزار حتى وجبت لهم النار فيقول الله تعالى قد شفعتك فيهم وأعطيتك سُؤْلك فينادي ملك من جوّ السماء ألا من زار كعبة الله فليعتزل عن الناس فيعتزلون فيجعلهم الله تعالى حول البيت الحرام بيض الوجوه آمنين من النار يطوفون ويلبون . ثم ينادي ملك من السماء ألا يا كعبة الله سيري فتقول الكعبة : لبيك اللهم لبيك والخير كله بيديك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . ثم يمدونها إلى المحشر فسبحان من جعل الكعبة البيت الحرام أمناً على من كان لها من الأنام أهلاً ، وخص بزمزم والمقام من قام بواجبه فرضاً ونفلاً ، واصطفى للمروة والصفا من سعى على أقدام الوفا واستبدل من الجفا وصلا ، فيا لها من عروس حنت إليها النفوس فراح المحبون من حبها أسرى وقتلى منادي الحبيب بالترحيب أهلاً وسهلاً :

مرحبًا مرحبًا وأهلاً وسهلا ... بعروس على المحبين تجلى ... لبست خلعة الجمال وزفت
سلبت للمشوق قلباً وعقلا ... قد هجرنا الديار والأهل شوقًا ... وقطعنا القفار وعراً وسهلا
وأتينا شعثاً وغبراً نلبي ... ودموع الأشواق تزداد هطلا ... ثم بعنا النفوس بيع سماح
وعلمنا بأن وصلك أغلى ... كم مشوق قد رام منك وصالاً ... قبل موت فلم ينل منك وصلا

تحت ظل الأراك أضحى طريحاً ... باكي العين عن حماك مخلى
عاقه حظه فعاد حزيناً ... وزمان السرور عنه تولى
أي شيء يكون في الأرض جمعاً ... من طواف القدوم والسعي أحلى

والتـزام السـتور والـدمع يجـري ... مـن سـرور وكعبـة الله تجلـى
رفعـت برقـع الجمـال ونـادت ... ألـف سـهلاً بالقـادمين وأهـلا
قـد عفـا الله عنكمـو وحبـاكم ... برضـاه وزادكـم منـه فضـلا
فاشـكروا الله مـذ دعـاكم إليهـا ... وأعـاد العسـير يـا قـوم سـهلا
بـادروا الآن للطـواف وقومـوا ... قـد صـفا الوقـت والحبيـب تجلـى
ما ترى الصيد عنـدها كيـف يُحمـى ... وكـذا الطـير فوقهـا مـا تعلـى
عـن قريـب نسـير في عرفـات ... ثم نرمـي مـن المـآثم حمـلا
وينـادي بالبشـير فينـا منـاد ... عنـدها تنظـر النـهار تـولى
قـد عفـا الله عـنكمُ وحمـاكم ... مـن جحـيم بهـا العصـاة أذلا
فـانفروا بـارك المهـيمن فـيكم ... واركبـوا الـنجم يـا كرامـاً أجـلا
فانثنينـا عنـد الصـباح جميعـاً ... نحـو وادي مـنى وأرض المصـلى
ورمينـا الجمـار لمـا قـدمنا ... وأتانـا السـرور والحـزن ولى
وحلقنـا الـرؤوس مـن بعـد نحـر ... واتبعنـا فعـال مـن كـان قـبلا
وقضـينا مناسـك الحـج حـتى ... عـاد مـن حـرّم المهـيمن حـلا
وشـددنا المطـي نحـو نـبيّ ... أطيـب العـالمين فرعـاً وأصـلا
أحمـد المصـطفى شـفيع البرايـا ... فـاز مـن زار قـبره وتملـى
فعليـه مـن الإلـه صـلاة ... وسـلام علـى المـدى لـيس يبلـى

المجلس العاشر

في ذكر ما جاء في البكاء والبكائين من خشية الله تعالى

الحمد لله الذي أبكى عيون الخائفين خوف الوعيد فجرت عيونهم كالعيون ، وأجرى سحب المدامع من عيون أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع فهم من خوف القطيعة يبكون ، أخذوا في النوح والتعديد خوف الوعيد فهم من مكره خائفون ، جعلوا التقوى لهم أفخر لباس فأطار الخوف نومهم والنعاس فهم عندما يفرح الناس يحزنون ، قد منع الدمع نومهم والهجوع فهم يبكون بفؤاد موجوع وقلب محزون ، قد جعلوا البكاء لهم دأباً والدمع شراباً يقطعون النهار حزناً والليل انتحاباً فهم عن البكاء لا يفترون ، فسبحان من أضحك وأبكى وأمات

وأحيا وعلم ما كان وما يكون ، عاهدوا مولاهم فوجدوه وفياً وعاملوه فوجدوه ملياً . فهم الذين ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم : ٥٨] قد عفر كل منهم في التراب وجه المصون ، إذا خلا حزينهم بنفسه أنّ وشكا . وإذا تفكر في ذنوبه تضرع وبكى ، وقرّح بالمدامع الجفون ، فكلهم في حضرة الملك الديان يمطرون الدمع من سحائب الأجفان ويخرون للأذقان يبكون ؛ سمعوا ما قيل لأهل الصدق والوفاء : « إن لم تبكوا فتباكوا » فهم من البكاء لا يملون ، أقلقهم الخوف فهم سائحون ، وأحرقهم الوجد فهم هائمون ، لزموا الحذر فهم في النهار صائمون ، وألفوا السهر فهم في الليل قائمون ، دموعهم شرابهم وصمتهم جوابهم فهم في الفتنة سالمون ، يبكي كل منهم على زلته وكلهم يخافون من سطوته ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] فسبحان من ابتلى عباده بأنواع الابتلاء من جميع الفنون ، ولم يعف من ذلك الأنبياء وهم المقربون ، فآدم عليه السلام بكى أربعين عاماً لما أخرج من الجنة وهو أبو البشر وصاحب العرض المصون . ويعقوب عليه السلام بكى على يوسف عليه السلام حتى ابيضت عيناه من الحزن وقال لباقي أولاده لما حجبوه عنه : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٨٦] ولما علم إخوة يوسف من أبيهم محض الودّ له وفرط الحب ألقوه في غيابة الجب ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : ١٦] وداود عليه السلام بكى أربعين عاماً على خطيئته ولم يرفع فيها رأسه إلى السماء من خجلته فنودي : يا داود أما الذنب فقد غفرناه وأما الود فلا يعود في الدنيا ولا يكون ، ولسان الحال يقول من فرط الحزن والشجون :

بكيت من حزني حتى جرى ... لما ألاقي من عيوني عيون

يا سادة أغضبتهم ساهيا ... عسى إلى حال الرضا يرجعون ... بكيت بالدمع على ما مضى
من زمن ولى وعيش مصون ... فيا رعى الله ليالي مضت ... بكم وقرت بلقاكم عيون
رضيت ما يرضاه لي سيدي ... وما أراد الله مني يكون ... والله ما استصعبت ما نالني
في حبه والصعب عندي يهون ... يا هل ترى يرجع عيش مضى ... بمن لقلبي في لقاه سكون
من قبل أن أعصيك يا سيدي ... يا ليتني لاقيت ريب المنون ... لكنني تبت ومالي سوى
بابك إذ يقصده التائبون ... وقد تشفعت بخير الورى ... ومن لديه لا تخيب الظنون

صلى عليه الله ما غردت ... ورقاء عند الصبح فوق الغصون

قال رسول الله ﷺ : « ليس شيء أحب إلى الله تعالى من قطرتين : قطرة دمع مع خشية الله وقطرة دم تراق في سبيل الله » ، وقال ﷺ : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله تعالى وعين سهرت في سبيل الله تعالى وعين يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله

تعالى » ، وكان من دعائه ﷺ : « اللهم ارزقني عينين هطالتين يبكيان الدمع من خشيتك قبل أن يكون الدمع دماً والأضراس جمراً » .

[**إخواني**] يقول الله تعالى في بعض كتبه المنزلة : وعزتي وجلالي لا يبكي عبد من خشيتي إلا أبدلته ضحكاً في نور قدسي ، قال للبكائين من خشيتي أبشروا فإنكم أول من تنزل عليه الرحمة إذا نزلت ، قل للمذنبين من عبادي يجالسوا البكائين من خشيتي لعلّي أن أصيبهم برحمتي إذا رحمت البكائين ، وقال النضر بن سعد رحمه الله : ما اغرورقت عين بمائها من خشية الله تعالى إلا حرم الله تعالى وجه صاحبها على النار فإن فاضت على خده لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة يوم القيامة ، ولو أن محزوناً بكى من خشية الله تعالى في أمة من الأمم لرحم الله تعالى ببكائه تلك الأمة ، وما من عمل إلا وله وزن إلا الدمعة فإنها تطفىء بحوراً من النار . وقال عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما : لأن أدمع دمعة من خشية الله تعالى أحب إليّ من أن أتصدق بألف دينار .

[**إخواني**] إذا تمكن الخوف من أرض القلوب والضلوع جرت سواقي الدموع فسقت بستان الخشية ، فأزهر بالندم وأثمر بالتوبة . كان داود عليه السلام يبكي الليل والنهار على خطيئته فخلع خلع الفرح ولبس جلباب الحزن فأسكت الحمام بنوحه وشغلها عن صدحها بصوته وأقلق الأفئدة بشجنه وروى العشب من دموعه . وكان يقول في مناجاته : خرجت أسأل أطباء عبادك أن يداووا قلبي من داء علتي فكلهم عليك دلني . إلـهي امدد عيني بالدموع وضعفي بالقوة حتى أبلغ رضاك عني :

يا من تجنبت صبري من تجنبه ... هب لي من الدمع ما أبكي عليك به
حتى متى زفراتي في تصعدها ... إلى الممات ودمعي في تصببه
وبي فؤاد إذا طال الغرام به ... هام اشتياقاً إلى لقيا معذبه

قال : فما زال يغسل العين من عين العين وهو يستغيث وينادي حتى أقلق الحاضر والبادي :

إن شفيعي إليك مني ... دموع عيني وحسن ظني
فبالذي قادني ذليلاً ... إليك إلا عفوت عني

[**وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله**] : البكاء من الخوف والاضطراب من الرجاء والشوق . وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ، فقيل له في ذلك ، فقال : بلغني أن النار لا تأكل موضعاً مسته الدموع ، يا هذا البكاء يطفىء جمر الذنوب ويحيي زرع القلوب ويوصلك إلى المطلوب ، فابك في خلواتك على جفواتك ، ابك بعبراتك على

عثراتك ، ابك في أيامك على ذنوبك وآثامك ، ابك في لياليك على غيك وتماديك :

بكى وحق له إرسال دمعته ... عبد تباعد عن مولاه وانتزحا
سقته لوعته أنواع عبرته ... إذا انقضى قدح أهدت له قدحا
كذا المحب إذا صحت مودته ... أيام فرقته لا يعرف الفرحا

[**قال أبو بكر الكناني رحمه الله**] : رأيت في المنام شاباً لم أر أحسن منه فقلت له : من أنت ؟ فقال : أنا التقوى ، فقلت له : فأين تسكن ؟ فقال : في كل قلب حزين بكاء . وقيل : رأى يزيد الرقاشي في نومه النبي ﷺ فقرأ عليه ، فقال له : هذه القراءة فأين البكاء ؟ وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله : رأيت في المنام جارية ما رأيت أحسن منها يتلألأ وجهها بهاءً وجمالاً ، فقلت لها : ما أنور وجهك ؟ فقالت : أتذكر الليلة التي بكيت فيها من خشية الله عز وجل ؟ قلت : نعم ، قالت : حملت إليّ دمعتك فمسحت بها وجهي فصار كما ترى .

[وحكي] عن عطاء السلمي أنه كان كثير البكاء فسئل عن ذلك فقال : لم لا أبكي ووثاق الموت في عنقي والقبر منزلي والقيامة موقفي والخصوم حولي يقولون لي يا مرائي بيننا وبينك الموقف لفصل القضاء . وبكى يزيد الرقاشي عند موته فقيل له : مم تبكي ؟ فقال : أبكي على ما يفوتني من قيام الليل وصيام النهار وحضور مجالس الذكر . ولما احتضر عامر بن قيس رحمه الله بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : والله إنما أبكي على صيام هواجر الصيف وقيام ليالي الشتاء . وبكى أبو الشعثاء رحمه الله عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : اشتقت إلى قيام الليل . وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه : مرض بعض العباد فدخلنا عليه نعوده فجعل ينتفس ويتأسف . فقلت له : على ماذا تتأسف ؟ فقال : أبكي بأن يصوم الصائمون ولست فيهم ، ويذكر الذاكرون ولست فيهم ، ويصلي المصلون ولست فيهم .

[إخواني] انظروا إلى هؤلاء السادة كيف يتأسفون على الفوت ، ويندمون على ترك العمل الصالح بعد الموت ، فاستدرك ما بقي من عمرك أيها الإنسان ، واعلم أنك كما تدين تدان . أما تمرون على قبورهم الدوارس وتعتبروا ! أما ترونهم في قبوهم قد أسروا يتمنون العود إليكم وهيهات ! ويسألون التدارك وقد فات ، وكم وعظ الزمان من ألباب ، وكم أنذر المشيب من شباب ، وكم أباد الموت من أتراب ! وكم فرق بين أحباب ! أما لك سمع للمواعظ يسمع ! أما لك عين على فراق الحبائب تدمع ! أما لك قلب من الخوف يخشع ! أما لك في التوبة إلى الله مطمع :

كم رأينا من أناس هلكوا ... فبكى أحبابهم ثم بكوا

تركـــوا الـــدنيا لمـــن بعـــدهمو ليتـــهم لـــو قـــدموا مـــا تركـــوا
كـــم رأينـــا مـــن ملـــوك ســـوقة ورأينـــا ســـوقة قـــد ملكـــوا
قلـــب الـــدهر علـــيهم فلكـــاً فاســـتداروا حيـــث دار الفلـــك

[وقيل] : أوحى الله تعالى إلى شعيب النبي ﷺ : يا شعيب هب لي من رقبتك الخضوع ، ومن قلبك الخشوع ، ومن عينيك الدموع ، وادعني فإني قريب . وقيل : بكى شعيب عليه السلام مائة عام حتى ذهب بصره فردّه الله تعالى عليه فبكى مائة أخرى حتى ذهب بصره فأوحى الله تعالى إليه يا شعيب ما هذا البكاء إن كان خوفاً من ناري فقد أمنتك منها ، وإن كان شوقاً إلى جنتي فقد أبحتك إياها . فقال : وعزتك وجلالك يا رب ما بكائي شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك ولكن عقد حبك في قلبي عقدة لا يحلها إلى النظر إلى وجهك الكريم . فقال الله تبارك وتعالى : إذا كان ذلك كذلك فلأبيحنك النظر إلى وجهي ولأبعثنّ إليك عاجلاً عبداً من عبادي يخدمك عشر سنين ثم أجعله كليماً ببركة مناجاتك :

هـل سـبيل للتلاقـي فلقـد طـال اشـتياقي بعد وصـل واجتمـاع وحـديث واتفـاق
قد سقاني البين كأسًا طعمـه مـرّ المـذاق فدموعي فـوق خـدي في انسكاب واندفاق

ليـــتني مـــتّ ولم ألـــ ـــق مـــرارات الفـــراق

آه على قلوب أذابها حرّ الغليل ، آه على نفوس أفناها البكاء والعويل ، آه على جوارح قابلت بفعلها القبيح الفعل الجميل ، آه على أكباد لم تتقطع خيفة من الملك الجليل ، آه على قلوب لم تتفكر في يوم الموت والرحيل ، آه على جنة عدن وظل ظليل ، آه على قسوة سلكت بالقلب إلى النار بئس السبيل ، آه على شراب من سلسبيل ، آه على نعيم نعم مقيل ، آه على قلب بالذنوب عليل ، آه على منّ شد عظمه للطاعة فأصبح وهو نبيل ، آه على سائق الرشد دليل ، أما آن لك يا مسكين أن تقلع عن هواك ! أما آن لك أن ترجع إلى باب مولاك ! أنسيت ما خولك وأعطاك ! أما خلقك فسواك ! أما عطف عليك القلوب وبرزقه غذاك ؟ أما ألهمك إلى الإسلام وهداك ! أما قربك بفضله وأدناك ! أما برّه في طرفة عين يغشاك ! فقابلت ذلك بالغفلة وركوب الشهوات ، والمبادرة بالخطايا والزلات ، فنقضت عهده ، وعصيت أمره ، ودمت على الإصرار ، وأطعت هواك وخالفت الجبار ، أما آن لك أن تستحي ممن شاهدك على المعصية ورآك ومع هذا الحرمان والبعد عن مولاك إن عدت إليه قبلك وارتضاك ، وإن لزمت خدمته قربك وأدناك :

تغسل من الطبع ثوبك تخشى من الناس تنظره وقلبك أضحى أسود مـا تغسـله بمتـاب
النـاس تنظـر ثيابـك والحـق ينظـر باطنـك فاغسل ثيـاب البـاطن تكتب مـن الأحبـاب

يا ناقض العهد تعلم بأن ربك مشرف على فعالك وتخشى تعلم بك الأصحاب
للهو تخلى سرّك وتستلذّ مسامعك وبين قلبك وسمعك عن الصلاح حجاب
أفنيت في اللهو عمرك وما ربحت سوى العنا إلى متى ذي المعاصي وشعر رأسك شاب
فقم وبادر بتوبة فنجم عمرك قد أفل وأخلص لمولاك ساعة من قبل غلق الباب
ياعبدنا كم تعرض عنا وفي جنح الدجى ندعوك في كل ليلة ولا تردّ جواب
وعزتي يا عبدي لقد أرى من فعلك ما لو رآه غيري ما راسلك بكتاب
لكن أجود بحلمي عليك علك تنصلح وأسترك حين تعصي وتغلق الأبواب
وبعد هذا تأتي إليّ تائب أقبلك وأتحفك بالعطايا في سائر الأسباب
وإن خشيت الفضيحة يوم القيامة فالذي بيني وبينك مخفي أنسيه للكتاب
فانهض بعزم صادق وأخلي لخوف باطنك وقف على باب جودي تسمع لذيذ الخطاب
وابكي ونح وتضرع وتب وبادر واعتذر وادعو وعفر خدودك على ثرى الأعتاب

[وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله] : دخلت يوماً على أبي سليمان الداراني فوجدته يبكي فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : يا أحمد وكيف لا أبكي وقد بلغني أنه إذا جن الليل وهدأت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه استنارت قلوب العارفين وتلذذت بذكر ربها وارتفعت همها إلى ذي العرش وافترش أهل المحبة أقدامهم بين يدي مليكهم في مناجاتهم ورددوا كلامه بأصوات محزونة وجرت دموعهم على خدودهم فتقطرت في محاريبهم خوفاً واشتياقاً إليه فأشرف عليه سبحانه ونظر إليهم وناداهم : أحبابي العارفين بي اشتغلتم بي ، ونفيتم عن قلوبكم ذكر غيري ، أبشروا فإن لكم السرور والقرب يوم تلقوني ، ونادى الجليل جل جلاله : يا جبريل بعيني من تلذذ بكلامي ، واستراح إليّ وأناخ بفنائي فإني مطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم وبكاءهم وأرى تقلبهم واجتهادهم فنادى فيهم : ما هذا البكاء الذي أسمع ؟ وما هذا التضرع الذي أرى منكم ؟ هل سمعتم أو أخبركم أحداً أن حبيباً يعذب أحبابه بالنار ! أم بلغكم أني أطرد من لاذ بي واستجار ؟ فوعزتي لأبيحنكم دار القرار ، ولأرفعنّ كل حجبي والأستار ، ولأعوضنكم بدموع الفرح والاستبشار :

ما ناح في أعلى الغصون الهزاز إلا تشوّقت لتلك الديار
ولا سرى من نحوكم بارق إلا وأجريت الدموع الغزار
واأسفي أين زمان الحمى وأين هاتيك الليالي القصار
واحرّ قلباه متى نلتقي وتنطفي من داخل القلب نار
وأنظر الأحباب قد واصلوا ويأخذ الوصل من الهجر ثار
أقول للنفس أبشري باللقا قد وصل الحب وقر الفرار

وقال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يخرج من عينيه دموع وإن كانت مثل رؤوس الذباب من

خشية الله تعالى فتصيب شيئاً من حر وجهه إلا حرمه الله تعالى على النار » . وقال وهب بن منبه ﷺ : سجد آدم عليه السلام على جبل الهند مائة عام يبكي حتى جرت دموعه في وادي سرنديب وأنبت الله في ذلك الوادي من دموعه الدارصين والقرنفل وغير ذلك من الطيب وجعل طير ذلك الوادي الطواويس ، ثم جاء جبريل عليه السلام فقال له : ارفع رأسك فقد غفر لك فرفع رأسه وأتى الكعبة فطاف بها أسبوعاً فما أتمه حتى خاض في دموعه .

فيا أيها العاصي تفكر في حال أبيك وتذكر ما جرى له يكفيك :

بكت عيني وحق لها بكاها ... على نفسي التي عصت الإلها
ومن أولى بطول الحزن منها ... وبالآثام قد قطعت مداها
فلا تقوى تصدّ عن المعاصي ... ولا تخشى الإله ولا تناهى
تتوب من الإساءة في صباح ... وتنقض قبل أن يأتي مساها
وتنكث عهدها حيناً فحيناً ... كأن الله فيه لا يراها
وتقعد عن حقوق الله عمداً ... وتبغي دائماً مالاً وجاها

[وقال مجاهد] : بكى داود عليه السلام أربعين يوماً وهو ساجد لا يرفع رأسه حياء من الله عز وجل حتى نبت من دموعه المرعى وحتى غطى رأسه فنودي : يا داود أجائع أنت فتطعم أم ظمآن فتسقى أم عار فتكسى أم مظلوم فينتصر لك ؟ فنحب نحبة فهاج ما ثمّ من الزرع فأنزل الله إليه التوبة والمغفرة . فقال : يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لغيره إلا رآها مقابلته وكان يؤتى بالقدح وثلثاه ماء فإذا تناوله رأى خطيئته فلا يضعه حتى يفيض من دموعه . فقال : يا رب أما ترحم بكائي ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود نسيت خطيئتك وذكرت بكاءك . فقال : إلهي كيف أنسى خطيئتي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء عن جريانه وسكن هبوب الريح وأظلتني الطير على رأسي وأتت الوحوش إلى محرابي . إلهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ، يا داود آدم خلق من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي ، وأسجدت له ملائكتي ، وألبسته ثوب كرامتي ، وتوجته بتاج وقاري وشكا إليّ الوحدة فزوّجته أمتي وأسكنته جنتي فعصاني ، فأخرجته من جواري عرياناً ذليلاً حائراً لا يدري أين يذهب فظل يبكي أربعين عاماً ، ولو وزنت دموعه لعدلت دموع الخلائق :

بكت عيني على ذنبي ... وما لاقيت من كربي ... فيا ذلي ويا خجلي ... إذا ما قال لي ربي
أما استحييت تعصيني ... ولا تخشى من العتب ... وتخفي الذنب من خلقي ... وتأبى في الهوى قربي
فتب مما جنيت عسى ... تعود إلى رضا الرب

[وكان فتح الموصلي ﷺ] يبكي الدموع ، ثم يبكي الدم ، فلما مات رؤي في المنام فقيل له :

ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفني بين يديه ، وقال لي : يا فتح هذا البكاء لماذا ؟ قلت : يا رب على تخلفي عن واجب حقك ، قال : فلم بكيت الدم ؟ قلت : يا رب خوفاً على دموعي أن لا تصح لي . قال : يا فتح ما أردت بذلك كله ؟ قلت : يا سيدي أردت بذلك وجهك الكريم فأرنيه واصنع بي ما شئت . فقال : وعزتي وجلالي لقد صعد إليّ حافظاك منذ أربعين سنة بصحيفتك وليس فيها خطيئة واحدة فلألبسنك لباس التكريم ولأمتعنك بالنظر إلى وجهي الكريم :

فإذا جلا ذاك الجمال عليهم ... جهراً أفاق الصب من غمراته
مولى إذا العشاق حار دليلهم ... وجدوا الهدى والرشد في آياته
ما في جميع الكون إلا عاشق ... ومولاه في حسنه وصفاته

هؤلاء والله هم الخواص من العبيد ، وهؤلاء صفوة الملك المجيد ، فهم السابقون إلى المقصود والمتنزهون في حضرة شاهد ومشهود ، فكيف حالك أيها الشقي المطرود ، المنقطع عنهم بمخالفة الملك المعبود ؟ بالله نح على نفسك وابك بكاء من أصبح عن الجناب وهو مبعد مطرود ؟

دع المفرط يبكي ... عسى المدامع تنفعه ... فالمدمع لا شك أشفى ... لقلبي المكمود
أنا الشقي المفرط ... قد ضاع عمري في الهوى ... وقد شقيت بفعلي ... ورأيي المفسود
من للمفرّط إذا ما ... رأى الحبايب واصلوا ... أحبابهم وهو عنهم ... دون الورى مبعود
يا غارقاً في المعاصي ... قد ضل عن طريق الهدى ... إلى متى يا معنى ... تبارز المعبود
انظر عبيد الطاعه ... كيف استنار قلبهم ... قوم يبيتون ركع ... لربهم وسجود
قاموا وصاموا وداموا ... واستوهبوا مليكهم ... جميع ما قد أرادوا ... وحصلوا المقصود
قوم أطاعوا المولى ... وشمروا واستيقنوا ... بأن ماذي الدنيا ... للمرء دار خلود
ما تستحي من ربك ... تأتي غداً يوم الجزا ... والخلق بيض الصحايف ... وأنت صحفك سود
تقدر بأنك تجحد ... وأن حالك يخفى ... استيقظ إن كنت نايم ... ما ذاك يوم جحود
أملاك ربك تكتب ... جميع ما قد تفعله ... وكل أعضاك تنطق ... وهم عليك شهود
واخجلتي من وقوف ... في وقت عرضي للقضا ... وقد تسودّ كتابي ... في المنظر المشهود
هناك تبدو الفضائح ... وينظروا ما قد جنوا ... وعند ذلك يبين ... الشقي من المسعود
فكم ترى ذا شيبة ... يسحبه الزبانية ... وكم فتى بالذلة ... والمعصية مطرود
وكم وجوه تقلب ... في النار في خزانها ... وكم جلود تبدل ... من حرها بجلود
وليس ينجي الخلائق ... من هول ما قد شاهدوا ... إلا الذي بالشفاعة ... من ربه موعود
رسول رب البرايا ... المصطفى الهادي الذي ... يسقي عطاش الأمة ... من حوضه المورود
صلى عليه الباري ... وما صلوت النوق في الفلا ... وما سرت كل عام ... إلى حماه وفود